دليل الأنوثة

تأليف مرية شرف

ترجمة أحمد سبابة

رقم الإيداع القانوني
Dépôt Légal 2019MO2817
ISBN 978-9920-37-827-7

دليل الأنوثة

ولادة المؤنث 5
طفولة ثاء التأنيث 9
كوني أنت 15
في الربيع الثامن عشر 19
في حضن الاتحاد الوطني لطلبة المغرب 22
سعادة في متناول اليد 26
المنفى 28
في المصنع 30
معا في السراء و الضراء 33
نضال الأنوثة 36
يوم الأرَض 47
الاختطاف 54
شامة و الذئاب 65
الخبز وتاي 69
كوني 71

دليل الأنوثة

ولادة المؤنث

المغرب، يا له من بلد جميل ....!

تسطع الشمس فيه على امتداد الفصول.

هنا، فوق هذه الأرض الخصبة رأيت النور.

نعم، نور مصباح قسم الولادة، في ليلة هادئة،

بالمستشفى العسكري بمدينة مراكش المغربية .

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة ليلا عندما أخذت انقباضات رحم حفيظة تزداد وثيرتها، فنقلها زوجها عزيز إلى المستشفى. كانت آلامها المبرحة تنذر بولادة عسيرة . استبد بحفيظة قلق مزدوج، فالأمر يتعلق بأول ولادة لها، كما أنها تخشى أن يكون المولود أنثى.

هنا في هذا البلد، التمييز الجنسي حاضر منذ أولى مراحل تكون الجنين كما هو الحال في جميع البلدان ذات الثقافة العربية الإسلامية. فالعادة أن يتمنى الأقرباء للمرأة الحامل "أن تكون فرحانة بشي عزري[1]"، فالولد الذكر يستقبل بحفاوة، إنه "حويط[2] الدار" ، أي ضمانة لأمه و لأخواته للحفاظ على الإرث عند وفاة الأب. فضلا عن ذلك، يعتقد في الأوساط التقليدية، أن الحمل الذي يتم دون مشاكل ينبئ بمولود ذكرا، بينما الحمل الصعب ينبئ بأنثى.

[1] ولد
[2] حائط

لقد فقدت حفيظة من إشراقها خلال هذا الحمل، لكن كيف كان لها أن تحافظ على هدوئها و عزيز زوجها يلتقي بانتظام كل مساء خليلته فاطمة، و يختلق كل يوم أسباب واهية لتبرير تأخره ليلا . إن حدس المرأة لا يخدع، وأمي كانت تشعر أن زوجها يبتعد عنها شيئا فشيئا كل يوم. ظنت أن قارب نجاتها هو المولود الذكر، حتى تستعيد مكانتها في بيتها .

يا لها من مصيبة، الولادة تبدو عسيرة. إنها تعتقد أن الآلام المبرحة تنذر بمولود أنثي. الآن هي متيقنة أنها ستضع بنتا. بدأت تتضرع لربها أن يأخذها بقربه. إنها تفضل الموت على الطلاق، فزوجها عزيز كأغلب الرجال، يتمنى ان يكون المولود ذكرا، لأن الأنثى في نظره عبء دون فائدة ، بينما يخلد الولد إسم أبيه و يشاطره المسؤوليات اليومية.

و أخيرا ، صاح الطبيب الشاب المكلف بالحراسة ذاك المساء :

- مبروك، لقد وضعت بنتا !

-ماذا ؟ بنت ؟ ولكني أريد ولدا... !

-آه ، كان عليك أن تخبريني برغبتك منذ البداية، و لكن انتظري، أظن أنه لازال هناك شيء ما في بطنك، ربما كان ولدا؟

-هل هو ولد حقا؟ هل وضعت توئمين ؟

-لا، إني أمزح فقط، إنه الخلاص، سأسحبه حالا من الرحم. عليك أن تكوني سعيدة بهذه المولودة، فهي بصحة جيدة، أنظري إلى عينيها العسليتين و خدها الوردي . ستكون في المستقبل فتاة جميلة لا محالة، صدقيني سيدتي.

لم تكن أمي تسمع شيئا مما كان يقوله الطبيب الشاب، بل كانت تتخيل نفسها واقفة أمام "العدول" لحضور تسجيل قرار الطلاق خلف عقد الزواج. كانت تنجح لبعض الوقت في طرد الفكرة و تتخيل أن زوجها عندما سيرى هذه الكتلة الممتلئة حياة، سيرق قلبه و يحتفظ بنا إلى جانبه .

أخذ من حفيظة عناء الولادة كثيرا، فما لبثت أن غرقت في نوم عميق حررها من هواجسها، إلى أن لاح الفجر و أيقظها بكائي، فألقمتني ثديها. غمرتها الرضاعة بموجة دفء و طمأنينة جعلتها تنسى كل هموم الأمس. لا يهم رأي عزيز في هذه الولادة، إني ابنتها قبل كل شيء، و ستتصارع من أجلي مهما حصل .

ها هو عزيز يلوح عند مدخل الحجرة، يبدو على ملامح وجهه أنه قد علم بالخبر. من بعيد، طلب من أمي إن كانت تحتاج لشيء ما. لم يقترب قط من المهد و غادر المستشفى بنفس السرعة التي حل بها، ثم عاد في نهاية اليوم ليأخذنا إلى المنزل .

لم ينظم أي احتفال بمولدي، باستثناء طقس الأضحية العادي، و أثناء ذبح الخروف، أطلق علي أبي اسم مارية . لا أحتفظ بأي ذكرى من مدينة مراكش الجذابة مسقط رأسي، لأنني غادرتها و عمري لا يتجاوز ثلاث أسابيع، ململمة بين ذراعي أمي الغارقة في الدموع.

ركبنا القطار المتوجه لمدينة الرباط، مسقط رأس أمي .لقد عادت إلى أسرتها، لأن زوجها سئم منها. إنها تتخيل الاستقبال الذي ينتظرها :

جدتي و هي تشتكي من التربية الفاشلة لابنتها، و جدي يتأفف من الإنفاق على ذرية غيره .

وصلت أمي إلى منزل والديها و سرعان ما أنستها فرحة لقاء أقاربها كل مخاوفها. لكن حرارة اللقاء هذه لم تدم طويلا، إذ بدأ الحديث يتمحور حول طلاقها، فانهالت عليها الأسئلة و المؤاخذات. لكنها رغم كل ذلك، كانت تشعر في قرارة نفسها بالاطمئنان، إذ وجدت الحماية و الحنان بين ذوييها .

أصدر القاضي الأمر لأبي بدفع نفقة شهرية لأمي قدرها ثلاثون درهما . كان هذا المبلغ زهيد جدا و لا يكفي حتى لشراء الخبز، في الوقت الذي كان أبي يتقاضى تعويضا شهريا عائليا عني مقداره تسعون درهما. رغم قيمتها الهزيلة ، لم تكن النفقة تؤدى بانتظام لأمي، لذلك اتصل خالي بمدير الإدارة التي يعمل بها والدي، و اشتكى من كون النفقة أقل من التعويض الذي تمنحه له الدولة. فوجئ المدير "الفرنسي الجنسية و المسيحي الديانة" بهذا الحيف و قرر أن يقتطع مباشرة من راتب والدي قيمة التعويض العائلي الذي يخصني، و حرر أمرا بتحويل المبلغ بصفة دائمة لأمي بالرباط. إلى يومنا هذا لا زلت أتساءل عن أي مسطرة طبقها القاضي المغربي المسلم لتقييم النفقة.....؟

هكذا أصبحت أمي مرغمة على العمل كخياطة و القبول بظروف عمل مجحفة و أجر هزيل في غياب فرص أفضل .

طفولة ثاء التاتيش

تعود أولى ذكريات طفولتي إلى السنة الثالثة من عمري، إذ لا زالت قطرات الندى المتألقة على أوراق الشجر تلمع في ذاكرتي. كان الجو صحوا، منح لنور الشمس إشراقة خاصة، إنه فاتح أكتوبر، يوم الدخول المدرسي. كنت أشد بقوة على يد أمي التي رافقتني إلى مكاني في الصف الأول من القسم. عندما همت بالابتعاد، انهمرت دموعي و تشبثت بطرف جلبابها، فجاءت الراهبة بقميصها الأسود المسدل من رأسها حتى أخمص قدميها. قدمت لي الحلوى و مسحت دموعي. لقد أودعتني أمي لمدرسة الراهبات التابعة للبعثة الفرنسية.

سرعان ما ربطتني صداقة مع طفلة إسمها نادية، كنا المغربيتين الوحيدتين في القسم، لأن الأغلبية كانت من أطفال الفرنسيين المقيمين بالمغرب. غريب أمر الأطفال حقا، إن قوة ملاحظتهم خارقة. لقد لاحظت منذ أول يوم أن الراهبات لا تعرننا أنا و صديقتي المغربية نفس الاهتمام الذي تخص به زميلاتنا الفرنسيات .

في أول يوم من الموسم الدراسي، أجلستني أمي في الصف الأول، قريبا من السبورة. لكن يوما بعد يوم، كانت المعلمة تطلب مني أن أغير مكاني و تجلسني في الصف الأخير، لتجلس مكاني طفلة فرنسية. حتى في حفل آخر السنة، كنا نجد أنفسنا نحن المغربيات خلف خشبة المسرح، توكل إلينا الأدوار الثانوية في العروض. لكن رغم هذا التميز المؤسف، أعترف أني قضيت في هذه المدرسة بعضا من أجمل لحظات الطفولة، و أنا لحد الآن مدينة لها بولعي

بالفن. لكن الطفلة التي كنتها آنذاك، و إن لاحظت مثل هذا التعامل المجحف، فإنها لا تستطيع تفسيره، بل قد تعتقد أنها تستحقه بسبب سلوكها السيئ، و لا يمكنها ان تتصور لحظة أن الأمر يتعلق بتمييز عنصري .

خارج أوقات الدراسة، كنت ألهو في حديقة المنزل . بالتأكيد لم تكن هذه الحديقة شاسعة، و لكنها كانت وحدها تمثل بالنسبة لي عالما بأكمله. كان بإمكاني أن أقضي فيها اليوم كله، أراقب حركة الحشرات من كل نوع، أسقي الأشجار، و أعجن التراب تماما كما كنت أرى جدتي تفعل مع عجين الخبز، و أصنع أشياء جد مسلية. كانت الحديقة هي ركني المفضل. أما الساحة خلف المنزل، حيث أقفاص الدجاج والأرانب، وقفص كبش العيد، فكانت مرتعي أنا و باقي أطفال الأسرة و مسرحا لألعابنا المختلفة. كما كنت جد مهتمة بالحيوانات التي ألفتني لدرجة أنها كانت تأكل مباشرة من كفي.

في البيت أيضا، كان هناك مرأب، و بما أننا لم نكن نملك سيارة بعد، فقد حول المرأب لمخزن لحفظ كل ما تم الاستغناء عنه . كنت اعتبر هذا المكان مغارة "علي بابا"، إذ كنت استمتع فيه بالبحث عن الأشياء العتيقة، و كل يوم كنت أكتشف فيه ما يدهشني .

كم كنت أحب التنزه مع أمي، عندما تأخذني إلى الباحات الرملية في الحدائق العمومية، أو عندما تأخذني للنزهة في الشارع الرئيسي، و تتركني أتأمل واجهات المحلات المزدانة باللعب .

كانت أمي تود أن أتابع تعليمي الابتدائي و الثانوي في مدارس البعثات الفرنسية، و لكن أخوها بوصفه رب العائلة الفعلي، اعترض بقوة على الفكرة، لأن مستقبل المغرب في نظره هو التعريب. خالي "سيدي محمد" هذا انقطع عن دراسته باكرا ليشتغل كتقني في البريد، لإعالة أسرته الكبيرة المكونة من أبويه، أخواته الأربعة و أنا بنت أخته، أي سبعة أشخاص في المجموع .

بعد نقاش حامي الوطيس ، اتفق الجميع أخيرا على تسجيلي بمدرسة "الحبوس" العمومية ، الكائنة بمنطقة تابعة لوزارة الأوقاف بحي "ديور الجامع" بالرباط. فتنت بحي الحبوس هذا الذي شيد وفق فن العمارة المغربية العريقة .كانت روعة أقواسه و جدرانه الحجرية تضفي عليه سحر حكايات ألف ليلة و ليلة، وأصبحت أزقته الضيقة والملتوية الخاصة بالراجلين مسرحا لألعابنا. في تلك الفترة، كان عدد تلميذات يفوق ما تسعه الأقسام المدرسية المتوفرة، لذا تم فصلنا إلى مجموعتين، مجموعة تدرس في القسم صباحا، و أخرى تستعمله بعد الزوال .

في سن السابعة، التحقت بالمخيم الصيفي بمدينة افران التابع لوزارة البريد ، و هو مركز صيفي جبلي خلاب. كان في المخيم مسبح كبير، لكني لم أكن أجيد السباحة بعد. ذات يوم، و أنا واقفة شاردة الذهن، و فوطة السباحة في يدي، وجدت نفسي فجأة وسط الماء، في الجهة من المسبح الأكثر عمقا. بدأت أغطس ثم أطفو و أتخبط بفزع خشية الغرق. لكني رغم ذلك، تمكنت من الوصول إلى زاوية المسبح و التشبث بسوره. لقد دفعني طفل كان يجري هربا من صديقه،

فأسقطني في المسبح. منذ ذلك اليوم، تعلمت السباحة ولم أعد أخشى الغوص في المياه العميقة .

أول رسائلي كتبتها إلى أمي خلال تواجدي بهذا المخيم، حيت حكيت لها فيها عن مغامراتي . كنت جد فخورة بكوني أصبحت قادرة على الاعتماد على نفسي و عمري لا يتجاوز سبع سنوات .

إني لا زلت أحتفظ بذكرى السهرات التي كانت تنظم ليلا في الطبيعة على ضوء القمر و النجوم، كنا نردد خلالها الأغاني و نشارك في ألعاب تربوية. كان الصباح مخصص للتجوال في الغابة أو الأشغال اليدوية أو السباحة. كنا منخرطات بحماس في هذه الأنشطة الجذابة إلى درجة أننا لم نشعر باقتراب نهاية مرحلة التخييم . لم يكن بالأمر الهين التخلي عن جو الأفراح هذا، وبمرارة أخذنا طريق العودة نحو الرباط .

بعد عودتي إلى البيت، وعدتني أمي بالسماح لي بالتخييم كل سنة إن حصلت على نتائج دراسية مرضية . في الحقيقة، لم يكن شرطها صعب المنال لأني لم أسبب لها قط قلقا من هذا الجانب .

ذات يوم، تقدم شخص للزواج من أمي، و هو عامل مهاجر في أوروبا . رأت فيه أمي رجلا صالحا، و بتشجيع من العائلة، تم الزواج و لحقت به في المهجر.

أصبحت الآن تحت رعاية جدتي التي وعدت أمي بالاعتناء بي كابنتها. كانت جدتي في الخمسينات من عمرها، كانت تشرف على كل الأعمال المنزلية و تتدخل في جميع القرارات العائلية. أمام شخصيتها الجامحة، كان لأبنائها موقفين متباينين، فالبعض كان يخضع لها و ينفذ أوامرها، أما ذوو الطبائع القوية، فلم يجدوا بدا من تفاديها و الهروب من

سيطرتها. في أحد الأيام غادر ابنها المنزل دون أن يخبر أحدا من العائلة عن وجهته. استقل القطار ثم الباخرة و استقر بادئ الأمر بفرنسا ثم التحق ببلجيكا بعد ذلك. كما سافرت إحدى بناتها إلى فرنسا قصد تهيء أطروحة الدكتوراه، و هناك تزوجت بجزائري و استقرت معه في الجزائر .

أما أنا و الحق يقال، فلم تكن علاقتي بجدتي سهلة، و ازدادت هذه العلاقة سوءا بعد رحيل أمي، إذ لم أكن أطيع أوامرها، و كنا نتشاجر لأتفه الأسباب. في تلك السنة الدراسية لم أحتل كالعادة الرتبة الأولى في القسم، وتملكني خجل جعلني لا أجرؤ على تقديم دفتر نتائجي المدرسية لخالي لإمضائه، وقمت أنا بتوقيعه بدلا عنه و مقلدة خطه .

في المنزل، لم تعد الأمور كما كانت عليه في السابق، لم يعد هناك من يرافقني للفسحة و لا من يعتني بي عندما يصيبني ألم أو تنتابني حمى، و لا من يهتم بتناسق ألوان ملابسي، و لا من يهيئ لي العشاء في وقته. كان جدي الوحيد الذي يوقظني صباحا حتى لا أتأخر عن المدرسة و كان يحكي لي في المساء حكايات شيقة .

لاحظت المعلمات في المدرسة حزني و سهوي، لم أعد التلميذة اليقظة التي يجب إسكاتها حتى تتاح للأخريات فرصة الإجابة و المشاركة. لم أعد أهتم بمراجعة دروسي. أما دفاتري، فقد أصبحت تشبه خرقا بالية. بل و أكثر من هذا، فقد حاولت الهرب من المنزل في سن التاسعة. وبينما أنا تائهة في حي بعيد دون هدف، لمحتني مديرة مدرستي التي كانت في تلك المنطقة بالصدفة، فنادتني. عندها كدت أموت فزعا و زعمت أني أضعت الطريق. لكن كذبتي هذه لم تنطلي

عليها و أدركت أني هاربة من المنزل، فأرجعتي إليه بعد التأكد من العنوان بفضل المعلومات التي كانت في ملفاتي المدرسية.

هناك في المنزل، عوقبت عقاب لن أنساه أبدا. لكن منذ ذلك اليوم، تحسن الجو العائلي، و خصوصا في قسم الدراسة، حيث كنت أجد ذاتي و أستعيد حيويتي.

كوني أنت .....

في سن التاسعة، التحقت من جديد بالمخيم، و هناك ربطتني علاقة صداقة مع طفلتين في مثل سني. شكلنا مجموعة منسجمة نتقاسم أغلب أنشطتنا. رويدا رويدا و دون سابق إنذار ولا أن ندري كيف، أصبحنا ستة... أي نعم، إذ كل واحدة منا ربطتها "علاقة حب" ناشئة بولد في سنها.

لا زلت أتذكر خفقان قلبي عندما أخذ صديقي يدي في يديه برفق . شعرت حينها بحنان هائل يجتاحني، احمرت وجنتاي من شدة الخجل، لكني سحبت يدي بسرعة لأن إحساسا بالذنب كبح هذا الميل الفطري . فأنا من وسط محافظ، و الجنس موضوع مسكوت عنه ولا سيما أمام الأطفال. كنت أعتقدت دائما أن الأزواج يصنعون الأطفال عندما يتبادلون القبل، و أن عملية الولادة تتم عبر فم الأم.

لازلت أتذكر الفضيحة التي أحدثتها إحدى خالاتي عندما أخبرت والدتي أني ألعب مع ابن الجيران. يومها تم تلقيني أن بنت العائلة الأصيلة لا تخالط الذكور أبدا.

لم يلح صديقي، و لكنه منذ ذلك الحين لم يعد يفارقني قيد خطوة أثناء الفسح، و أهداني في آخر يوم من المخيم خاتما مرصعا بجوهرة على شكل قلب وردية اللون. حين وضعها في أصبعي، تسارعت نبضات قلبي حتى كادت أنفاسي تنقطع .

في سن الحادية عشر، التحقت بثانوية عمر الخيام، و هي من بين الثانويات العصرية في العاصمة، تقع بشارع فكتور هيكو في "حي الليمون". بفضل نتائجي الجيدة و تدخل أحد الأقارب، حصلت على منحة دراسية مكنتني من ولوج القسم الداخلي. كانت أغلب زميلاتي في المرقد من عائلات ميسورة الحال، من أباء جد منشغلين بتسيير شركاتهم وأعمالهم و ترتيب الاستقبالات المندرجة في إطار تنمية علاقاتهم الاجتماعية، لدرجة أنهم فضلوا توكيل تربية بناتهم لهذه المؤسسة .

في هذه الفترة، كنت تلميذة مواظبة، حاضرة البديهة في القسم لدرجة أني لم أكن بحاجة للمذاكرة خلال ساعات المراجعة في القسم الداخلي، فكنت أقضي هذه اللحظات في كتابة القصائد و رسم وجوه المعيدات المكلفات بحراستنا . كنا نخضع لنظام صارم في تلك الفترة، إذ لم يكن يسمح لنا نحن" الداخليات" بمغادرة المؤسسة إلا في أيام العطل و الأعياد. في بداية كل سنة دراسية، كان يدون إسم القريب-ة المكلف-ة بمرافقة التلميذة خارج المؤسسة، لم يكن بالإمكان أن توكل هذه المهمة إلا لمن ت-يثبت قرابته-ا العائلية بالتلميذة. كان هذا يعني بالنسبة للتلميذات القادمات من مناطق النائية، البقاء محاصرات لمدة قد تفوق الشهر داخل جدران الداخلية، و هو الأمر الذي لم يكن يطبق على الذكور. أما أنا فكنت ضمن المحظوظات اللواتي تخرجن أسبوعيا. كنت أقضي معظم عطلة آخر الأسبوع خارج المنزل، إما في ضيافة إحدى صديقاتي أو مدعوة لحفل عيد ميلاد ما، وكل ذلك دون علم أسرتي بطبيعة الحال .

في سن الرابعة عشر، صادفت الحب الأول، وهي نفس السنة التي تعرفت فيها على والدي الذي كان قد دعاني لزيارته لأول مرة بمراكش، بعد أن تماثل للشفاء إثر مرض عضال ألم به و جعله طريح الفراش. نعم، و بعد مرور كل هذه السنين وكما يقول المثال الفرنسي : "Vaut mieux tard que jamais"

عند اللقاء، وجدت نفسي أمام رجل غريب، لم أحس اتجاهه بأي شيء. ولكن شيئا فشيئا بدأت أكتشف فيه رجلا ذو طابع مرح، مزاجه مراكشي صرف، حواره دافئ و مرصع بالنكث، يكن له وسطه احتراما خاصا و يناديه الكل " بالشريف" .

في المغرب العميق، و خصوصا في الجنوب، كانت تعتمد تراتبية للساكنة تنبني على أصولهم العرقية، حيث كان التمييز بين الشرفاء و باقي السلالات .و كان لكل قبيلة زاويتها حيث دفن "السيد" ، ذلك الجد المبجل من طرف القبيلة و سكان المنطقة. كان و لازال الشرفاء المنحدرين من الزاوية يتلقون الهدايا و الأضاحي من طرف الزوار، بل و حتى من طرف المخزن، ضمانا لولاء القبيلة .

تم استقدام ابن عمي من الدار البيضاء خصيصا للقائي، إذ كانت عائلتي المراكشية تنوي عقد قراني عليه. فالشرفاء متعصبون فيما يخص تزويج بناتهم من نفس سلالتهم، خصوصا عندما يتعلق الأمر بزواج البنت . لكن جرت رياحي بما لا تشتهي سفنهم، فميولي لم يساير توجيهات العائلة منذ لحظة وطأت قدمي منزل جدتي بمراكش، إذ انصهرت نظراتي في أحداق خالد ابن الجيران الذي كان يكبرني بسنتين و يبدو منفتحا على روح العصر. بعد عودتي إلى الرباط،

كنا نتبادل رسائل دافئة ونلتقي خلال العطل المدرسية. دامت علاقتنا هذه مدة ثلاث سنوات، لكن مع مرور الوقت، أخذت أفكارنا تتباعد تدريجيا و اكتشفت أنه محافظ كأغلب المغاربة. لم يكن يعي شيئا من أفكاري التقدمية و التحررية، خصوصا عندما شرحت له أني إن تزوجته لن أحمل إسمه، إذ ظن أني أنتقص من قيمته. و من بين أفكاره التي لم أستسغها أبدا، الأهمية التي كان يوليها لعذرية الفتاة قبل الزواج . في الحقيقة، لم يكن الوحيد الذي يحمل هذا الفكر الذكوري الذي يشيء جسد المرأة . أغلب الرجال هنا يفتخرون بمغامراتهم مع النساء، و لكنهم ينكرون على المرأة حق امتلاكها لجسدها و حقها في حياة عاطفية متوازنة. كعلامة احترام لحبيبته، يحافظ الخليل على بكارتها، و إن حدث أن فقدتها «بطريقة عارضة"، يكتم الخبر و بحيلة من الحيل المتداولة سرا، يتم «إظهار" بعض قطرات الدم صبيحة ليلة الدخلة، إشادة و تنويها بعذرية العروس. لكن قد يحدث أن يتخلى الخليل عن خليلته لأنها لم تتحصن، فيهجرها من أجل مغامرات أخرى، و كثيرا ما ينتج عن مثل هذه المواقف المتخاذلة مآسي كانتحار الفتاة الملكومة أو انحرافها و فقدانها الثقة في أي كان .

لقد كنت دائما أومن في قرارة نفسي بأنه من غير المعقول أن يتدخل الرجل و المجتمع ككل في تفاصيل الحياة و العلاقات الحميمية للفتيات و النساء و كأنهن مسلوبات الحرية و الإرادة. فكيف يمكن و الحالة هذه للفتيات و للنساء أن يستقلن بأنفسهن في الوقت الذي لا تتحكمن حتى اجسادهن ؟

في الربيع الثامن عشر

هكذا، ابتعدت شيئا فشيئا عن خالد بعد أن تبين لي أن أفكارنا تتنافر، و خصصت أغلب وقتي للتحصيل و للمراجعة لتهيئ امتحانات البكالوريا شعبة العلوم الرياضية. أصبحت شهادة البكالوريا هي هدفي، فهي مفتاح استقلالي الحقيقي المادي و المعنوي.

بعد حصولي على البكالوريا، التحقت بالمدرسة المحمدية للمهندسين و ذلك خلافا لتوجيهات كل أفراد العائلة ، ذكورا و إناثا، و الذين شجعوني على متابعة دراستي في شعبة الطب أو الصيدلة التي تتلاءم أكثر، حسب وجهة نظرهم، مع طبيعتي كالمرأة. لكن سرعان ما تقبلوا اختياري هذا، بل أصبحت العائلة فخورة بعد ذلك بهذا الاختيار .

من طقوس الدخول المدرسي في المدرسة المحمدية للمهندسين، تنظيم القدماء لحفل يدعى ' Bisutage ' لأستقبال الطلبة و الطالبات الجدد اللواتي التحقن بالمدرسة . في مثل هذه المناسبة، يكون للفتيات حصة الأسد من سوء المعاملة و الاستفزاز، و يكن الأكثر عرضة للإزعاج، بل حتى للتحرش في بعض الأحيان من طرف الطلبة القدامى، خصوصا إذا عرفنا أن نسبة الفتيات المسجلات في المدرسة كانت لا تفوق 2%.

تعود النسبة الضعيفة للفتيات بين طلاب الهندسة إلى التربية التي تتلقاها الفتاة منذ الصغر، بل منذ أسابيعها الأولى في الحياة . إذ أظهرت عدة دراسات أن تعامل الوالدين والمحيط مع الرضيع-ة يختلف

حسب جنسها، و أن وعي الأطفال بذاتهم ينمو عبر تبادل الرموز و الإشارات مع أمهم أساسا ثم مع محيطهم، حيث غالبا ما تسود علاقات تقليدية بين الوالدين، فالرجل يعتبر متفوقا على المرأة، وجد للعمل و كسب المال و الموارد و قادر على اتخاذ القرارات الكبرى. أما المرأة، فيعتقد أنها وجدت للقيام بأدوار ثانوية و للعمل المنزلي، كما عليها أن تسهر على راحة الزوج و سلالته . منذ نعومة أظفارها، تميل الطفلة لمحاكاة أمها مقلدة إياها في كل حركاتها، ابتداء من مظاهر الزينة و الأنوثة و انتهاء بالمهام اليومية التي غالبا ما كانت تنحصر في ترتيب البيت و في الطبخ وغسل الأواني.

هكذا يتم توجيه البنت بحكم الواقع المعاش، نحو مصير شبيه بمصير أمها. أما الولد، فهو يتظاهر بقراءة الجرائد كما يفعل والده . هذا الاختلاف يلاحظ حتى في اللعب التي تهدى لكل من الجنسين. فنصيب البنت دمية تنهمك في الاعتناء بها، تنومها، تغذيها و تغير ملابسها طوال اليوم، بينما يتلقى الطفل أنواعا أخرى من الهدايا: كرة أو دراجة أو سيارات سباق. كما أن فضاء ألعابه لا ينحصر في المنزل كما هو الحال بالنسبة للبنات . في المدارس الابتدائية، كانت الدروس تعيد إنتاج مضمون الحياة التقليدية و كان الحضور النسائي في كتب مقررات التعليم الابتدائي ضئيل جدا. كمثال على ذلك، كتاب القراءة المخصص للسنة السادسة من التعليم الأساسي أواخر التسعينات و الذي كانت نصوصه تتناول في مواضيعها 100 مرة رجلا، مقابل 10 مرات امرأة، و 17مرة أولادا مقابل 9 مرات فتيات. أما أبطال حكايات الأطفال فهم من الذكور في أغلب الأحيان ، ما عدا الفتاة اليتيمة المعوزة التي تحلم

بأمير ينتزعها من براثين الفقر و كأنها لا تمتلك مؤهلات الارتقاء الاجتماعي بفضل كدها و اجتهادها.

عند بلوغ الفتاة سن المراهقة، لا يعير الوالدين بشكل عام اهتماما كبيرا لنجاح البنت في المدرسة. فهما يهيئانها لتكون زوجة مثالية. إن المعرفة من قراءة و كتابة تبدو لهما ثانوية و ليست ضرورية للحصول على زوج لائق. لكن في المقابل، يحرصان جد الحرص على تلقينها آداب الحياة الاجتماعية و الأسرية و كيف عليها أن تنسحب في حضور الذكور و تصمت أمام العموم وتجلس دائما و أبدا ملتصقة الركبتين. لذا، يبدو من السهل و الحالة هذه، أن نتفهم لماذا نحن فقط حفنة من الشابات اللواتي تأتى لهن متابعة دروس الهندسة .

أقمت في داخلية المدرسة. كانت ساعات الدروس لا تترك لي أي وقت حر لممارسة اهتماماتي الفنية. لم أعد أرسم و لا أكتب قصائد، بل اكتفيت فقط بزيارة معارض اللوحات الفنية من وقت لآخر. كانت هذه السنة سنة تكيفي مع نظام مدرسي قاسي نسبيا. لم يكن اندماجي في هذا الوسط الذكوري بالأمر الهين و ذلك نظرا للتربية التي تلقيتها و نظرا لأنه لم يسبق لي أن درست في مؤسسة مختلطة .

في حضن الاتحاد الوطني لطلبة المغرب

ابتداء من السنة الدراسية الثانية بالمدرسة المحمدية للمهندسين، بدأت أهتم بالعمل الجمعوي الطلابي. ففي مدرستنا، كان الطلبة هم الذين يقومون بتسيير بعض الأنشطة كالمقصف و مراقبة نوعية و جودة الوجبات و تنظيم الأنشطة الثقافية و إنجاز مجلة حائطية. كان هذا الإشراف يتم بواسطة لجنة منتخبة من طرف الجمع العام السنوي، بالإضافة إلى هذا، كانت هناك لجان مكونة من أعضاء متطوعين يخصصون وقتهم الحر للأنشطة الموازية .

في نهاية العام الثاني، كان على الطلبة و الطالبات القيام بتدريب في أحد المصانع. و كنت ضمن ستة طالبات أردن القيام بهذا التدريب في المكتب الوطني للسكك الحديدية.

تم استدعاؤنا من طرف المسؤول عن قسم التكوين في هذه المؤسسة الذي أفهمنا أن السككيين من طينة خاصة، أناس محافظون و منغلقون، لم يسبق لهم قط أن رأوا طالبات هندسة. سرد علينا هذا المسؤول لائحة من العراقيل لإقناعنا بالتخلي عن هذا التدريب، لكننا أفهمناه أن لنا استعدادا كبيرا لتجاوز كل المصاعب و المشاكل التي قد يسببها وجودنا في هذه المؤسسة. وفي الأخير ، نجحنا في إقناعه .

أثناء التدريب، تبين لي أن تحذيرات هذا "المسؤول عن التكوين" لم تكن قائمة على أي أساس . لمست لدى العمال انفتاحا فكريا و عقلية مخالفة لعقليته. فقد قدموا لي المساعدات الضرورية لجعل تدريبي مفيدا و عبروا لي عن افتخارهم بنا كشابات مغربيات تقتحمن

مجالات تكنولوجية. و لكي أقترب منهم و أستفيد أكثر، التزمت بنفس توقيتهم و استعملت وسيلة النقل الجماعية التي يوفرها لهم مكتب السكك الحديدية . هكذا، و من خلال تعاملي مع هؤلاء العمال، تعرفت على عالم البروليتارية الذي كنت أجهل كل شيء عنه . عاينت عن قرب البؤس المادي للعمال و السعة الكبيرة لقلوبهم. إنهم -رغم ما قد يظن البعض- واعون بواقعهم و قادرون على تحليل الأسباب الحقيقية لهذه الأوضاع. لقد أدركت في نهاية التدريب أني أخذت دروسا عملية في السيسيولوجيا بقدر ما أخذت دروسا تطبيقية في التكنولوجيا .

وأنا أباشر السنة الثالثة من الدراسة، أدركت أن نيل دبلوم الهندسة لم يعد هو هدفي الوحيد. لقد تغيرت نظرتي لكل ما يدور حولي عما كانت عليه في السابق. العديد من الأسئلة و الأفكار تزدحم في عقلي. أصبحت شغوفة بالقراءة، ألتهم الكتب بنهم بحثا عن أجوبة لتساؤلات بدأت تتضارب في ذهني. و حتى أجمع بين الفائدة و المنفعة، تحملت مسؤولية تسيير مكتبة الجمعية الطلابية. خلال هذه السنة، تحملت عدة مسؤوليات ، إضافة لإشرافي على تسيير المكتبة ، كنت مسؤولة عن المجلة الحائطية و عن فرقة مسرح .

في أحد الأيام، و أنا ألقي نظرة على ركن "المنوعات" في المجلة الحائطية، علمت أن فرقة المسرح الطلابي بالمؤسسة تبحث عن طالبة للقيام بدور فتاة فلسطينية في مسرحية عنوانها "أمطار و حرائق"، تهيؤها الفرقة لتقديمها في الأسبوع الثقافي. اتصلت بأمين، رئيس المجموعة، كي يطلعني أكثر حول موضوع

المسرحية. كانت المسرحية تربط بين الآلام التي يعاني منها سكان أكبر حي قصديري بالمغرب "حي ابن امسيك" و آلام الشعب الفلسطيني اللاجئ في المخيمات. المأساة متشابهة، كلاهما يغرق في وحل الأمطار الطوفانية في فصل الشتاء، و تلسعه أشعة الشمس الحارقة في فصل الصيف. هنا سكان أحياء القصدير يستيقظون ليلا على صراخ طلب النجدة و الاستغاثة جراء الحرائق الإجرامية التي تهدف طردهم من مساكنهم، تماما كما يقفز الفلسطينيون فزعا على صوت المدافع و الأسلحة الأوتوماتيكية و القصف الجوي.

أعجبت كثيرا بموضوع المسرحية، و بعد نقاش مستفيض مع أمين، أصبحت عضوا في الفرقة المسرحية، و شرعنا في التدريب بانتظام حتى نكون على أتم استعداد للأسابيع الثقافية المرتقبة في فصل الربيع. لم يشارك أمين معنا في التداريب سوى مرة أو مرتين. كان منهمكا في تحضير انتخابات مكتب الجمعية الطلابية التي تقدم لها بترشيحه و تم انتخابه رئيسا لها. أصبحنا إذن نلتقى باستمرار لتنسيق الأنشطة الثقافية. أعجبت بحرصه على استكمال المهام التي تسند إليه و أبهرت بمزاجه الهادئ و قدرته الهائلة على ربط علاقات إنسانية مع الكل. هذه الخصال هي التي جعلته يحظى بثقة رفاقه في الجمعية.

تميزت سنة 1978 بالغليان في الوسط الطلابي. كل الفصائل السياسية الحاضرة في الجامعة التمت حول شعار رفع الحظر عن الاتحاد الوطني لطلبة المغرب (أ و ط م .UNEM) . ساهم أمين في إعادة ربط الاتصال مع أعضاء المجلس الإداري المنبثق عن المؤتمر الخامس عشر، و حتى بالذين شملهم الاعتقال، لأن الأغلبية كانت في غياهب السجون

أو في المنفى. و هكذا اجتمع أمين بمجلس تنسيق يضم جميع الفصائل السياسية لتهيئ المؤتمر السادس عشر للمنظمة العتيدة.

سعادة في متناول اليد

لأول مرة في حياتي أقضي ليلة بيضاء. كنا نترقب نتائج انتخابات المؤتمرين للمؤتمر السادس عشر، و كنت أنا و الأمين نتجاذب أطراف الحديث حول مائدة شاي في مقصف المدرسة. تناولنا العديد من المواضيع و كانت أفكارنا تلتقي في أكثر من موضوع. منذ تلك اللحظة، وجدت نفسي أبدي اهتماما خاصا به .

حل فصل الربيع، فصل الأحبة . و في إحدى أمسياته العطرة، بادرني أمين في موضوع علاقتنا و خاصة جانبها العاطفي. بعد نقاش عميق، حددنا مضمون العلاقة العاطفية التي تجمعنا و عقدنا ميثاقا التزم كل واحد منا باحترامه. كما اتفقنا على أن العلاقة العاطفية يجب أن تكون محركا للتنمية الذاتية لكلى الطرفين دون أن تؤثر على استقلاليتهما الاجتماعية و الفكرية و المادية. يكون أساس هذه العلاقة النزاهة و الاحترام المتبادل حتى في أوقات الاختلاف. ويمكن أن تنتهي العلاقة باتفاق بين الطرفين، دون أن يؤثر ذلك على صداقتهما.

مرت عدة أيام على هذا الحديث قبل أن تتاح لنا الفرصة لنلتقي رأسا لرأس. كنا وقتها نقضي مع بعض الرفاق أمسية رفاقية، نستمتع خلالها كالعادة بأغاني مارسيل خليفة و الشيخ إمام، إلى أن التقت أناملنا بعفوية، فتشابكت في نشوة عشق و حنان. لاحظ أصدقاؤنا دون شك رغبتنا الجامحة، فانسحبوا من المجلس الواحد تلو الآخر .

ها نحن أخيرا وحدنا، و كأن أجسادنا تتعارف منذ الأزل. تلك الليلة كان فيها أمين صديقا و حبيبا و كانت سعادتي لا توصف. مع أمين التحمت ثانية مع جوهر روحي ، شاطرته ما في أعماقي ، ولم أكن بحاجة للعب أي دور قصد تكييف سلوكي مع انتظاراته. لم يغمض لنا جفن ليلتها، ومنذ تلك الليلة ونحن لا نفترق، نقتسم الأفراح و الهموم و المحن و المسرات ...

المنفى

حالة تأهب قصوى هذا المساء في الداخلية، و ذلك على إثر اعتقال الكاتب العام لجمعية الطلبة. تسرب رجال القمع متنكرين في زي مدني إلى داخل غرف الطلبة. أخذت تروج شائعات مفادها أن الاعتقالات ستشمل الطلبة الأكثر نشاطا.

شكل الطلبة و الطالبات لجان يقظة للتناوب على حراسة جميع منافذ المؤسسة بصفة مستمرة، لمراقبة محيط المدرسة و منع أي غريب من التسلل إليها. سرى خبر الاعتقالات في الجامعة بسرعة وفجر الخبر موجة إضرابات في المدارس و الكليات. أخذت الاعتقالات تطال أكثر فأكثر الطلبة دون أن تنجح في توقيف المظاهرات و الإضرابات. تحت هذا الضغط المتنامي، اضطرت السلطات إلى الإسراع بتقديم رفاقنا إلى المحكمة بتهمة الانتماء إلى تنظيمات غير مرخص لها .

حصل أمين على دبلوم مهندس شعبة الإلكترونيك و قرر الاشتغال في المكتب الشريف للفوسفاط، لكن وزارة الداخلية كان لها رأي آخر، فعينته في عمالة الراشيدية، هذه المدينة الموجودة على أبواب الصحراء . التحق أمين بالعمالة، واستغرب كثيرا لأنه لم يجد هناك أي مهمة بانتظاره. كانت شروط العيش في هذه المناطق جد قاسية، فتقدم أمين بالعديد من طلبات الانتقال دون جدوى. هكذا إذن، لم يكن الأمر يتعلق بتعيين و لكن بنفي، الهدف من وراءه غسل دماغه، و ذلك بسبب نشاطه السابق في إطار الاتحاد الوطني لطلبة المغرب .

دعاني أمين لقضاء بعض الوقت بجواره. قمت بالرحلة ليلا من الرباط إلى مكناس ثم من مكناس إلى الراشيدية. كان الجو قارسا لدرجة أنه لم أتمكن من إغماض جفني. لما لاح الصباح، توقفت الحافلة في الطريق بطلب من أحد المسافرين في منطقة صحراوية مترامية الأطراف حتى مرمى البصر، لا شيء يميز أي بقعة منها عن الأخرى، مما جعلني أتساءل كيف لهذا المسافر أن يتعرف على المكان الذي يقصده .

غمرني لقاء أمين بسعادة جعلتني أنسى صقيع الليل. قدمني لأصدقائه الجدد. تناولنا وجبة الفطور على شرفة المقهى الوحيد الممكن ارتياده صحبة فتاة، ثم انطلقنا بعد ذلك في جولة لاكتشاف المدينة . جولة لم تستغرق أكثر من نصف ساعة، إذ لم تكن في هذه المدينة آنذاك مرافق ثقافية و لا قاعات سينمائية جديرة بهذا الإسم و لا أماكن للتسلية. لكن رغم ذلك، لم يدخر أمين جهدا لجعل إقامتي ممتعة .

في المصنع

ها قد حصلت أخيرا على دبلوم الهندسة شعبة الصناعة الميكانيكية و التبادل الحراري...! و بما أني كنت دائما أهتم بالقطاع الصناعي، فقد تقدمت بطلب تعييني في إطار الخدمة المدنية بمصنع تكرير البترول. لكن الأمر لم يكن بالهين، إذ أخبرت منذ اليوم الأول أن تواجدي في هذا المصنع لن يتعدى مدة الخدمة المدنية. لقد كان يبدو للقائمين عليه انه لا مكان لي كفتاة في وسط عمالي ذكوري مئة بالمئة. لكني قبلت بهذا الشرط المجحف، أملا في الاستفادة من مدة الخدمة المدنية كتدريب لصقل المهارات التي اكتسبتها خلال دراساتي الهندسية .

لم أتوصل كباقي المهندسين الجدد ببرنامج التدريب الذي من المفروض أن يشمل وحدات الإنتاج و أوراش صيانة المعدات و باقي المرافق الصناعية و الإدارية من أجل التأقلم مع أنشطة المصنع، بل كان علي أن ألح كثيرا من أجل الحصول عليه إسوة بباقي الزملاء.

باشرت التدريب في وحدات الإنتاج . لم يكن باستطاعتي أن أنبس ببنت شفة في الأيام الأولى للتدريب وذلك لكون العمال كانوا يمطرونني بالأسئلة. كانوا يريدون التأكد من كوني فعلا مهندسة و معرفة مبررات اختياري هذا. هكذا كان علي أن أجيب على نفس الأسئلة لعشرات الأشخاص يوميا. لكن و لحسن الحظ لم يدم هذا الوضع طويلا، إذ ما إن أشبع العمال فضولهم حتى تقبلوا وجودي بينهم، بل وساهموا فعليا في جودة تدريبي، باستثناء أحد المهندسين الذي ترك لدي انطباعا

سيئا و ذلك بإلحاحه علي بالالتحاق بالإدارة في الرباط، لأن هذا، حسب رأيه، يتلاءم مع طبيعتي كامرأة و يقربني من عائلتي. فهل كان يرى في وجودي في المصنع منافس غير مرغوب فيه؟ هل كان حضوري في نفس الفضاء يمس رجولته؟ هل المهن التقنية هي محميات خاصة بالذكور؟ لم أكن أعير أي اهتمام لنصائحه و استكملت تدربي في المصنع، في الوقت الذي تم الاستغناء عنه هو لأنه لم يبين عن أي كفاءة خلال فترة التدريب .

في هذه الفترة، كنت أرتدي ملابس محتشمة و مجردة من أي أناقة. أما في وحدات الإنتاج، فكنت أرتدي ثياب المعمل الزرقاء و خوذة لوقاية الرأس و أحذية السلامة مثل التي يرتديها العمال. كانت رغبتي أن أذوب وسط المستخدمين دون أن يلتفت إلي أحد، و أعتقد أن استراتيجيتي هذه قد نجحت لأن العمال خلصوا إلى أنه لا يوجد هناك فرق بيننا، لدرجة أن بعضهم كان يناديني ب"السيد" عندها أبدي امتعاضي، خصوصا أن بعضهم عوض أن يتقدم بالاعتذار اللازم، كان يعتبر هذا اللقب نوع من تشريف للمرأة. فأخذت أشرح بلطف لكن بصرامة في نفس الوقت، أني فخورة بكوني امرأة و أنه شيء جارح للمرأة أن تعامل كرجل تماما كما هو الشأن بالنسبة للرجل الذي يرفض أن يعامل كامرأة. أما المزودون والزوار، فكان يدهشهم صغر سني و يتساءلون كيف أمكنني و في هذا السن أن أصبح مهندسة و رئيسة مصلحة. فكنت أجيبهم بتهكم أني ولدت هنا في هذا المصنع. و الواقع أن جوابي كان فيه جزء من الحقيقة .

كانت أجرتي في إطار الخدمة المدنية لا تتجاوز1500 درهم شهريا، و هذا المبلغ لم يكن كافيا لتلبية حاجياتي الشخصية وحاجيات والدتي. حررت إذا طلبا للإدارة العامة لإدماجي بعقدة عمل، تمكنني من الحصول على راتب أفضل. إثرذلك و لاختبار كفاءاتي، كلفني مدير الصيانة بتتبع أشغال ورش الصيانة العامة لوحدة من بين الوحدات صناعية. عند نهاية الورش سلمني رئيس قسم الموارد البشرية عقد العمل الذي وقعته على مضد، بسبب شروطه المادية التي لم تكن ترقى إلى ما أصبو إليه، لكني قبلت بها مرحليا كبداية مشوار بدى لي واعدا. انتقلت إثر ذلك من الرباط للسكن بمدينة الدار البيضاء، العاصمة الاقتصادية وأكبر مدينة مغربية.

استقر أمين بمدينة الدار البيضاء هو كذاك إثر عودته من المنفى. و بعد تدريب لبضعة شهور في مصنع "جنيرال تاير المغرب"، التحق بنفس المصنع الذي أشتغل فيه و ذلك رغم اعتراضي المبدئي، لأني كنت لا أود مزج حياتي المهنية بحياتي العائلية، لكن أمين طمأنيني و أكد لي أنه لن تكون هناك مشكلة من هذا الجانب. لكن هذا الوضع الجديد فرض علينا أن نوثق زواجنا لتفادي القيل و القال و لإضفاء الطابع الرسمي على علاقتنا.

معا في السراء و الضراء

حضر أبي خصيصا من مراكش لعقد قراني، كنت في الخامسة و العشرين من عمري و كان سن أمين سبعة و عشرون عاما .

وفقا لمدونة الأحوال الشخصية في المغرب آن ذاك، لم يكن من الجائز أن تتزوج الفتاة إلا بموافقة الأب أو الأخ أو الوصي "الذكر"، الذي من الممكن أن يكون ابنها البالغ .فلا استقلالية لها في هذا المجال مهما كان وضعها و سنها، سواء كانت شابة، مطلقة أو أرملة. إذا كان الأب لا يزال على قيد الحياة، فإن حضوره و موافقته ضروريان لإتمام عقد الزواج. في حالة وفاة الأب، يعين وصي من بين الأقارب الذكور و يوقع لهذا القريب انتدابا لتزويج البنت بحضور اثنا عشر شاهدا و عدلين و لا تقبل إلا شهادة الرجال. يكتب في عقد الزواج مقدار المال الذى يقدمه الزوج كصداق. في المغرب، يتم تقسيم هذا المبلغ عادة إلى قسمين، الجزء الأول يقدم للعروس أو لعائلتها عند إبرام عقد الزواج، و ينفق هذا الملغ عموما على تأثيث بيت الزوجية و شراء مجوهرات للعروس. أما الجزء المتبقي فهو اختياري. لكن عندما تتم الإشارة إليه في عقد الزواج، يمكن للمرأة أن تطالب به حينا ولو لم ينقضي إلا يوم واحد على الزواج أو عند حصول الطلاق.

لازلت أتذكر الصداع الحاد الذي ألم بي ليلة زواجي، عندما اضطلعت على نصوص المدونة وقتها. لم تصدق عيني تلك الصيغة المسطرة سواد على بياض، والتي تنص على ضرورة تنفيذ المرأة لأوامر زوجها، فضلا عن هذا، يمكن للرجل أن يطلق زوجته بسهولة، في الوقت الذي

كانت تحتاج المرأة إلى رفع قضية في المحكمة من أجل الحصول على التطليق الذي هو بيد القاضي و الذي لم يكن يوافق عليه آنذاك إلا في حالات محدودة و بشرط أن يكون هناك ما يثبت الضرر الذي لحق المرأة، كهجر الزوج لبيت الزوجية أو عجزه عن الإنفاق أو إصابته بمرض عضال. في الحالات الشائعة للنزاعات بين الأزواج، لم تكن المرأة تجد آنذلك منفذا لفسخ عقد زواجها سوى طلاق الخلع. ويتم هذا الطلاق بعد إرضاءها للزوج بمنحه قدرا من المال أو هبة "تشتري" بها المرأة حريتها .

لم يكن هذا الحل الأخير في متناول أغلب الزوجات، لأنهن ربات بيوت و لا مدخولا لهن لسلك هذه المسطرة. إن المثل المغربي الذي يقول "دخول الحمام ماشي بحال خروجه[3]" ينطبق تماما على حالة المرأة المغربية عندما تتزوج. في كل حالات الطلاق، كانت المرأة تطرد من بيت الزوجية للعودة إلى بيت والديها اللذان على العموم لا يستقبلان هذه العودة بارتياح، لأن المطلقة يكون في الغالب لها أطفال تتمسك بالاحتفاظ بهم إلى جانبها، وهذا ما يعني تكاليف جديدة ستثقل كاهل والديها. هكذا يصبح وضع المرأة هشا لأن النفقة التي خصصها لها القاضي تكون عادة هزيلة و بحكم أنه لم تتم تربيتها على مبدأ الاعتماد على نفسها، فإنه لا يمكنها أن تعيد بناء حياتها و هي تتحمل عبء الأبناء. هكذا تجد المطلقة نفسها مضطرة للبحث عن عمل، و لأن 70% من الفتيات و النساء تتخبطن في الأمية أو لا تتوفرن سوى على مستوى تعليمي ضعيف و بدون كفاءات مهنية، فإنهن لا تحصلن في أغلب الحالات سوى على عمل مؤقت و على أجر هزيل .

[3] دخول الحمام ليس كالخروج منه

تدفع هذه الوضعية الكثير من النساء المعوزات إلى الاشتغال في المعامل أو كخادمات بيوت أو في أقصى الحالات قد تلجأن إلى الدعارة كوسيلة للعيش. بينما يمضي الرجل في حياة هادئة و تجارب عاطفية جديدة، لأنه استقال من العبء العائلي اليومي لأبنائه. قد يعيش مغامرات أخرى و زواجا آخر أو طلاقا آخر، و لم لا مادام الطلاق لم و لن يؤثر على واقعه، فقد تخلص من تكاليف يومية ثقيلة و من مهام تربية أطفاله.

الزواج المغربي التقليدي يعني احتفالات و نفقات باهظة غير محدودة، أما أنا و أمين، فلم نكن على استعداد لمثل هذا التبذير من أجل وثيقة لا قيمة لها في نظرنا. كان المهم بالنسبة لنا هو العقد الحميمي الذي أمضيناه بقلوبنا منذ سنوات، فحياتنا الزوجية لن تكون سوى امتدادا لعلاقة حبنا العميق.

لم يتغير نمط حياتنا كثيرا عما كان عليه في السابق. ظل كل منا يحتفظ باستقلاله المادي و المعنوي و ينظم جدوله الزمني وفق إرادته. أما في العمل، فكنا نحاول أن تظل علاقتنا عادية كزميلين يشتغلان في نفس الشركة. لمناقشة موضوع ما، كثيرا ما كنا نلتقي في مقهى و نناقشه حول كأس شاي. أما في المساء، فكلانا كان ينشغل بقراءة جريدة أو مطالعة كتاب .

نضال الأنوثة

عندما تحملت مسؤولية تسيير مصلحة برمجة الصيانة ، كنت أول امرأة تتبوأ مثل هذا المنصب في قطاع الصناعة الثقيلة بالمغرب، لأن النساء لا تصلن إلا ناذرا لمثل هذه المناصب . كنت جد متحمسة لهذه المهمة الجديدة و كرست لها كامل جهدي. لم تعد مطالعة الكتب وحدها تكفيني كنشاط موازي، لقد أصبحت بحاجة للمشاركة في الحياة الاجتماعية حتى أساهم بدوري في تطور محيطي نحو الأفضل. التحقت إذن بإحدى الجمعيات التي تناضل من أجل تحسين وضعية المرأة، إذ شهدت تلك الحقبة تشكيل جمعيات ثقافية عديدة في مدينة الدار البيضاء و غيرها من المدن المغربية. كان نشاط الجمعية يشمل أبحاث و تحقيقات و تنظيم محاضرات تتناول قضايا المرأة، من أجل المساهمة في تحريرها من قيود الفكر المحافظ و الرفع من مستوى وعيها بحقوقها و تأهيلها و تعبأتها للمطالبة و لتحقيق المساواة الفعلية مع الرجل في جميع الميادين .

في المغرب كما هو الشأن بالنسبة لأغلب البلدان العربية الإسلامية، لازال يعتبر البعض المرأة كائنا من الدرجة الثانية و ينظر إليها نظرة كلها تناقضات . فمن جهة، تبجل الأم مجسدة أنبل القيم الإنسانية مثل الحنان و التحمل و الصبر، و كيف لا و الجنة تحت أقدامها. لكن من جهة أخرى، و في بعض الأوساط المحافظة، ينظر إليها ككائن دوني، ضعيف البنية و الشخصية و لا فائدة من تمتيعها بالمساواة مع الرجل .

إن ثقافتنا هي مجموع معتقدات و تصورات و عادات و أفكار مسبقة، تحدد تصرفاتنا تجاه المرأة و قد تكرس النظرة الدونية اتجاهها. هذا الميز بسبب النوع يتجلى منذ الحمل، عندما يتمنى الأقرباء للمرأة الحامل "تكوني فرحانة بشي عزري"[4]. إن صورة الرجل الغالبة هي صورة رب العائلة، سيد المقاولة و الذي بيده القرار في كل المجالات. إنه كائن أعلى درجة من المرأة، ولا أدل على ذلك من المثل الذي يردد على أسماع الفتيات قبل الزواج و بعده: "الرجل لا يعاب ".

منذ الطفولة هناك تمييز شنيع بين الجنسين ، حيث توجه الفتاة نحو الأشغال المنزلية التي تنضاف إلى الالتزامات المدرسية، هذا إذا كانت محظوظة و متمدرسة. أما في الأوساط الفقيرة، حيث تعليم الأطفال يشكل تكلفة ليست بالهينة، فالأولوية في التمدرس كانت تعطى للأولاد و خصوصا في البادية، حيث 72 في المائة من البنات بين 7 و 13سنة كن في تلك الحقبة غير متمدرسات. إن تأثير الوسط التقليدي يعرقل التطور الاجتماعي و الثقافي باعتباره رافعة قادرة على محو الأفكار المسبقة و تغيير مواقف و سلوك الأفراد نحو الأفضل.

ففي وسط كانت تنخر الأمية 65% من ساكنته، لا يمكن تغيير العقليات و تطويرها إلا بواسطة الوسائط السمعية البصرية، لكن هذا يستلزم إرادة سياسية حقيقية من طرف السلطات العمومية. و رغم الهوة السحيقة بين ما تنص عليه التشريعات و التطبيق الفعلي على أرض الواقع، فإن الدستور المغربي ينص على أن جميع المغاربة رجالا و

[4] نتمنى لك مولودا ذكرا

نساء متساوون أمام القانون، يتمتعون بنفس الحقوق، و أن حق الانتخاب مضمون للمواطنين البالغين نساء و رجالا و المتمتعين و المتمتعات بحقوقهم المدنية و السياسية. رغم أن الدستور منح النساء حق التصويت و الانتخاب، فإبان الانتخابات التشريعية لسنة، 1977 التي شارك فيها 6 ملاين و نصف مليون ناخب، ضمنهم 3 ملايين من النساء، لم تفز سوى ثمانية مرشحات ، و هو الأمر الذي تكرر في الانتخابات البلدية لسنة 1983 .

كان علينا انتظار انتخابات 1993 لنرى بالكاد امرأتين تصلان إلى غرفة البرلمان. في السياسة كانت تعتبر المرأة و لازلت عند البعض، مجرد "خصلة شعر وقعت سهوا في كوب حساء"[5]. لم يكن الأمر أحسن حالا داخل التنظيمات الحزبية و الجمعوية ، حيث يتم حصر مساهمة المرأة في لجنة المرأة أو مكلفة بالشؤون الاجتماعية و لا تصل إلا بصعوبة إلى مراكز القرار كاللجان المركزية أو المكاتب التنفيذية، كيفما كان لونها السياسي. فهل نسي رجال السياسة عندنا أن أول تظاهرة ضد الاستعمار كانت تظاهرة النساء بمدينة الخميسات وذلك في سنة 1913 ؟ و هل تناسوا أنهم لما كانوا وراء القضبان أو في المنفى، فإن الأمهات و الأخوات و الزوجات هن من تجرأن على الخروج للشارع في مظاهرات عارمة للمطالبة بإطلاق سراحهم أو عودتهم من المنافي .

إن تمكن العديد من النساء المحظوظات من التربية و التعليم و العمل المأجور أثر إيجابيا على وضعية المرأة في المغرب، فاقتحمت عدة مجالات كانت إلى وقت قريب حكرا على الرجال، فهن الآن عاملات،

[5] مثال فرنسي

تقنيات و محاميات و قاضيات و صيدليات و ربابنة طائرات و مهندسات و طبيبات و مقاولات . لكن نسبة ولوج الإناث للتكوين و للعمل المؤدى عنه تظل ضعيفة مقارنة مع نسبة الذكور، و تحتد هذه الفوارق في الأوساط الفقيرة و في البادية. و مع ذلك ، استطاعت النساء بفضل إصرارهن و نضالهن، زعزعة الوضع القائم، سواء في الخلية العائلية أو في المجتمع .

لكن رغم التطور الملفت للنظر لأوضاع النساء في المغرب منذ الاستقلال، فإن الفارق لا زال قويا بين طموحات المرأة و الواقع المعاش، في الوقت الذي كان من الأجدى اعتبار مطالب النساء في المساواة محركا للتغيير يصب في صالح المجتمع، إذ يمكن اعتبار وضع المرأة في أي مجتمع و مدى تمتعها بكافة حقوقها كإنسان معيارا لتقدمه.

تشكل مؤهلات النساء و الفتيات موارد ثمينة للوطن، و هي احتياطي في حاجة لتقييم و لاستغلال مناسب. لا يكفي أن يقر الدستور للمرأة بالمساواة، بل يجب أن تضمن لها المساواة الفعلية على أرض الواقع و على جميع المستويات، و هذا يتطلب عملا دؤوبا في كل في المجالات، ويهم بالخصوص أصحاب القرار الذين لم يتحرر بعضهم بعد من الأفكار المحافظة و الجاهزة.

و رغم ما يقال في الخطابات الرسمية، فإن غياب المرأة في مواقع القرار بارز للعيان، إذ لم يسبق أن كانت هناك امرأة وزيرة قبل سنة 1997، و نسبة النساء البرلمانيات كانت أقل من 1% في بلد تشكل النساء أكثر من نصف ساكنته. كان إذن من واجبنا نحن اللواتي واتتهن الفرصة

و الحظ للتعلم و لولوج سوق الشغل، أن نعمل من أجل تمكين باقي الفتيات و النساء من الانعتاق. كانت طموحاتنا كبيرة، لكن الوسائل المتاحة محدودة، إذ كنا لا نتوفر سوى على قليل من الوقت و كثير من الأحلام .

لم أستمر طويلا في هذه الجمعية النسائية، لأني استنتجت أن نشاطها ذو أثر محدود لا يتعدى فئة قليلة من الشابات. شرعت إذن في البحث عن نشاط أكثر ارتباطا بالواقع الملموس للفئات المحرومة. ساهمت في إنشاء نادي المرأة العاملة التابع للاتحاد المغربي للشغل، بهدف تقديم المساعدة الاجتماعية و الثقافية للنساء الكادحات.

سمحت لنا النقابة باستعمال المقر الكائن وسط المدينة القديمة بالدار البيضاء. عملنا في بادئ الأمر على صياغة برنامج و خطة عمل، و حددنا الأهداف كالتالي :

- تنظيم دروس محاربة الأمية
- تنشيط حصص إخبارية
- تشجيع العاملات على الانخراط في النقابة

في شهر شتنبر، نظمنا حملة للتعريف بأنشطتنا، و انصرفنا نلف الأحياء والشعبية و نطرق أبواب المنازل بابا بابا. استقبلتنا النساء بترحيب خاص. كانت هذه أول فرصة تتاح لي للاضطلاع على شروط الحياة البئيسة التي تخفيها هذه الجدران العتيقة والمتساقطة أحجارها تحت وطأة البؤس و الفاقة.

في منزل واحد من منازل المدينة القديمة، تعيش أسر كثيرة، كل عائلة تملك غرفة وحيدة يتكدس فيها الوالدين و الأطفال. أما المراحيض و المطبخ و السطح و البهو، فهي أماكن مشتركة بين السكان.

ما إن فتح باب إحدى المنازل حتى تملكني الغثيان و كدت أختنق من شدة نثانة الروائح المتسربة من المواسير. لكن الاستقبال الحار لسكان المنزل جعلني أنسى هذه الرائحة. قدمت لنا النساء شايا عذبا، و تجادبنا أطراف الحديث حول أوضاع النساء. فبدا على بعضهن اهتمام بنشاطنا، و لكنهن تأسفن لعدم تمكنهن من الانخراط في أنشطتنا بسبب الإكراهات العائلية، بينما الأخريات الأكثر شبابا، تحمسن لفكرة تعلم القراءة و الكتابة، و أكدن لنا التحاقهن بالنادي.

ترقبنا خروج العاملات عند أبواب المصانع، فلم نكن في حاجة لبدل مجهود كبير لإقناعهن، إذ كن واعيات بحكم نشاطهن المهني و مقتنعات بضرورة تعلم القراءة و الكتابة .

انطلقت الدروس في شهر أكتوبر، و شكلنا مجموعات متجانسة. خصصنا فترة ما بعد الظهيرة لربات البيوت و بعض الخادمات، أما الحصص الليلية، فكانت للعاملات، ثم وزعنا بيننا الحصص حسب الأوقات التي تناسب كل واحدة منا، و تكلفت أنا و خديجة بالدروس الليلية .

كنا نعقد اجتماعا أسبوعيا لتنسيق نشاطنا. كنت الح على أن تتم الاجتماعات في المقر المحلي للاتحاد المغربي للشغل و ليس بمنزل إحدانا أو في أي مكان خاص كما كانت تقترح أخريات، لأنني كنت أفضل

العمل في وضوح النهار و تحمل كامل المسؤولية في الدفاع علنا عن أفكاري. بعد نقاشات صاخبة، كان لي ما أريد .

عندما اخترت التطوع في هذا النشاط، كان هدفي الوحيد أن أفيد الفتيات و النساء اللواتي لم تتح لهن فرصة التمدرس، لكن الفائدة عادت علي أنا في المقام الأول، لأني عندما التقيت هؤلاء النساء، اكتشفت فيهن قيما يفتقدها عالمنا، فهن صبورات، تتحملن التضحية و المعاناة في صمت .

عرفت سنة 1984 حملة تعبئة واسعة وسط المهندسين من أجل عقد مؤتمرهم الوطني. انعقد المؤتمر في 27 مايو 1984، ساهت في أشغال المؤتمر بتقديم عرض أمام الجمع العام حول المصاعب التي تعترض المسار المهني للنساء و خاصة المهندسات. ساند عرضي جل المؤتمرين و المؤتمرات و صوتوا على توصية تتعلق بالوضعية الخاصة للمرأة المهندسة، كانت خطوطها العريضة كالتالي:

توصية الاتحاد الوطني للمهندسين

- ✓ يمثل عدد الطالبات في أغلب المعاهد و المدارس العليا نسبة جد ضئيلة، رغم أن شروط التسجيل هي نفسها بالنسبة للجنسين. يعود هذا إلى مضمون الكتب و البرامج الدراسية في التعليم الابتدائي و الثانوي ، التي تجسد الفتيات و النساء في أدوار ثانوية مما يحد من طموحات الفتيات و يبقيهن حبيسات الشعب و المهن الثانوية و يصرفهن عن الشعب التقنية و عن المهن العالية

المهارة والمدرة لدخل أعلى، بينما يوجه الذكور نحو المجالات العلمية و التقنية .

- ✓ على مستوى الشغل، و رغم المساواة النظرية بين الجنسين في التشريعات، فإن أغلب النساء الحاملات لشهادات تجدن صعوبات في الحصول على عمل يطابق تكوينهن، كما يصطدمن بعقليات متخلفة لبعض المسؤولين قبل أن تعترضهن مشاكل بسبب النوع عند ممارسة الوظيفة.

- ✓ رغم هذه الصعوبات، فإن المرأة إذا نجحت في الحصول على عمل، فإنها لا تستفيد من الترقيات التي تستحق و لو كانت تملك أعلى المؤهلات في مجال نشاطها المهني.

- ✓ يدين المؤتمرون التمييز الممارس ضد المرأة في بعض المؤسسات ويدعو المصالح المعنية إلى إلغاء الحواجز المادية و الثقافية التي تعترض رغبة المهندسة المغربية في المساهمة الفعالة في اقتصاد البلاد و يطالب بتوفير نفس شروط العمل و التسهيلات لكل المواطنين نساء كانو أم و رجالا .

عند نهاية أشغال المؤتمر، ترشحت ونجحت في انتخابات المجلس الإداري .

بالموازاة مع نشاطي في الاتحاد الوطني للمهندسين، داومت على تقديم دروس محو الأمية في نادي المرأة العاملة.

في أحد الأيام لاحظت تخلف رشيدة - إحدى التلميذات المجتهدات - عن الدروس فأخبرت خديجة بالموضوع، و اتفقنا على زيارتها في منزلها.

سلكنا الأزقة الضيقة التي تتخلل المدينة العتيقة. كنا نتوقف كثيرا لطلب المساعدة من المارة لمعرفة الطريق. كانت الأزقة تزداد اختناقا كلما تقدمنا وكأنها متاهة دون مخرج.

ها قد وصلنا أخيرا للزقاق حيث تقطن رشيدة. لما استقر نظري على الثقب مكان النافذة في أعلى الجدار المتساقط، اجتاحت كياني قشعريرة من هول الصدمة، و كأني لمست شحنة كهرباء. فوجئت بتردي المكان و بالفقر المدقع البادي على السكان وبسواد الجدران الآيلة للسقوط و بغياب الأبواب و النوافذ و بتناثر الفضلات على الأرض و بفيضان المواسير وروائحها النتنة.

اقترحت على خديجة العودة من حيث أتينا، إذ لم أعد أحتمل رؤية المزيد. من شدة تأثري بكل هذا البؤس، خشيت أن أجهض حملي الذي كان قد أشرف على ثلاثة أشهر، بينما احتفظت خديجة بهدوئها و طمأنتني راجية مني متابعة الطريق. أمام إلحاحها هذا ، تجاوزت قلقي و تابعت السير طول الأسوار المهترئة علها تحميني.

كانت هناك امرأة عجوز، واقفة قرب حائط حجري حافية القدمين، بشعرها الأبيض و الأشعث و لباسها الرث، تطلعت إلينا بوجه تعلوه التجاعيد، وهي تمسك بيدها طنجرة اسودت بدخان نار الحطب. رفعت نحونا نظرة فارغة و أخبرتنا أن رشيدة تسكن بالفعل هنا.

دخلنا غرفة دون باب ، تفصلها عن البهو ستائر ممزقة، أما الأرض فقد فرشت بحصائر مهترئة، امتد عليها رجل طاعن في السن، سألناه عن أخبار رشيدة فأجابنا:

-لماذا تبحثان عنها ؟

-نحن مدربات نادي المرأة العاملة، حيث تدرس رشيدة كل مساء.

-أنا أبوها ، الله يرضي عليكن، لقد كلمتي رشيدة كثيرا عنكن.

-ولكن لماذا لم تعد تحضر الدروس؟

-إني ضرير و مريض طريح الفراش و ليس لدي أقرباء عدى رشيدة التي ترعاني. رشيدة تشتغل الآن كخادمة لدى إحدى الأسر، و في المساء تهيئ لي طعامي و تقدم لي الدواء، لم يعد لها وقت للدروس الليلية. تمنينا للرجل الشفاء و العافية، وطلبنا منه تبليغ تحياتنا لأبنته .

إن ما رأيت و سمعت و شعرت به ذلك اليوم ترك بصماته في أعماقي دون شك طوال حياتي. كيف لي أن أعود إلى بيتي كل مساء مرتاحة البال، دون التفكير في هذه النفوس المقبورة في الأكواخ. إني أحترق ألما لما أتذكر أنه وفي القرن العشرين، لازالت هناك بيننا كائنات بشرية تعيش عيشة الحيوان.

في فبراير من سنة 1985، أستدعينا من طرف نقابة الاتحاد المغربي للشغل للمشاركة في المؤتمر السابع للشبيبة العاملة الذي انعقد بالدار البيضاء أيام 23 و 24 فبراير .

في هذا المؤتمر أيضا، ألقيت كلمة باسم نادي المرأة العاملة، بعدها صادق المؤتمرون على توصية تتعلق بأوضاع العاملات، تتلخص خطوطها العريضة في :

- ✓ إن مشاكل المرأة العاملة لا تختلف عن مشاكل العامل، و لكنها تزداد حدة بحكم الاعتبارات الاقتصادية و الاجتماعية الخاصة بوسطنا، حيث يسود الجهل و التخلف، و حيث الثروات توظف في خدمة حفنة من المحظوظين على حساب المحرومين .
- ✓ إن المؤتمر يدين الاستغلال المزدوج الذي تعاني منه المرأة العاملة من طرف أقلية، تحرمها من حقوقها سواء الاجتماعية أو النقابية و تعتبرها دون الرجل، رغم مشاركتها المهمة في الاقتصاد الوطني .
- ✓ إن المجتمع المغربي الذي لا يزال مطبوعا ببصمات القرون الوسطى و عصر الإقطاع، لا يمكن أن يتحول نحو الأفضل إلا بالتغيير على مستوى الاختيارات السياسية التي فاقمت قمع المرأة و تهميشها و استغلالها .

و أخيرا يدعو المؤتمر المكتب التنفيذي للشبيبة العاملة :

- ✓ أن يعمل على خلق لجنة المرأة لإعادة تنشيط الاتحاد و إنشاء أندية محاربة الأمية في جميع القطاعات المركزية النقابية لتطال أكبر عدد من النساء العاملات.

يوم الأرض

صادف شهري التاسع من الحمل حلول فصل الربيع، كاسيا الأرض خضرة و إشراقا. امتلىء بطني كثيرا حتى أني لم أعد أجرؤ على الخروج من المنزل. بعد عدة إنقباضات مخاض كاذبة، نصحني الطبيب بالراحة التامة. توقفت عن كل نشاط و لم أعد أخرج من البيت إلا لفسحة يومية لا تتعدى مدتها نصف ساعة .

أظهر الفحص الطبي أن الجنين بصحة جيدة، لم أسأل إن كان القادم ولد أم بنت و لو أنني كنت أزعم أني أفضل بنتا للمزايدة فقط. فكلما وجه لي أحد-ا-هـ-ا-م دعاءه-ا لي بإنجاب ولد. كنت أرد بأني أفضل بنت. في الحقيقة، كان الأمر سيان بالنسبة لي، وكان كل ما يهمني حقا هو أن يكون لي طفل أو طفلة في كامل الصحة و أن تتم الولادة دون مشاكل .

صادف 30 مارس 1985 يوم سبت. سافر أمين إلى الرباط لزيارة أخته . شعرت بانقباضات الرحم الأولى على الساعة الثالثة بعد الزوال، لكنها كانت متباعدة مما جعلني أتريث ربما يكون الإنذار خاطئا كالسابق. لكن لا، هذه المرة انقباضات الرحم تبدو قوية و متصاعدة .

كنت سعيدة لفكرة أن يزداد ابني في هذا اليوم الذي يصادف يوم الأرض، ذكرى انتفاضة الشعب الفلسطيني الذي أهرق الصهاينة دماؤه .

انتابني بعض القلق بسبب تأخر أمين. هاتفت أخته لكنه لم يكن في بيتها. شرعت رغم ذلك في تهيئ حقيبتي و انتظار عودته. أخيرا عاد على الساعة العاشرة مساءا و صاحبني إلى العيادة.

كانت انقباضات رحمي تشتد، و كنت أعيش هذا الإحساس بكل جوارحي، لحد أني لم أبالي قط بآلام المخاض. في تلك اللحظة، فكرت في كل النساء اللواتي يصرخن منذ الانقباضات الأولى، مستنجدات بكل الشرفاء لمساعدتهن و تخليصهن. هل يشعرن حقا بآلام مبرحة أم أنهن يفرغن في صراخهن كل معاناتهن السابقة.

كانت المولدة تأتي من وقت لآخر لمراقبة مدى انفتاح عنق الرحم. يبدو أنني لن أضع الليلة، لكن لم يغمض لي جفن . في الغد أحسست أن حركات الجنين قد ضعفت. تملكني الخوف و القلق فطلبت حضور طبيب التوليد الذي تابع كل مراحل حملي.

حضر الطبيب أخيرا على الساعة الحادية عشر صباحا، و بعد فحص سريع، أمر الممرضات بتهيي ء قاعة العمليات من أجل ولادة قيصرية. حقنني الطبيب بمادة مخدرة و هو يكلمني بهدوء. سرى السائل في شراييني فاجتاحتني نشوة ممتعة .

ما إن استيقظت حتى تحسست تلقائيا بطني الفارغ. ناديت الممرضة و سألتها بلهفة عن حال المولود، فأخبرتني أن العملية مرت بسلام و أني وضعت ولدا، فطلبت منها إحضاره، لكنها أوصتني بالتريث حتى يزول مفعول المخدر لأتمكن من أخذه بين ذراعي بأمان. كان هذا أصعب انتظار عشته في حياتي.

في الساعة الثالثة مساءا، تم نقلي من غرفة العمليات إلى حجرتي بالمصحة . ها هو ابني أخيرا ، إنه رائع! إني منبهرة بهذا الكائن، لا أصدق بعد أنه مني. أعجبت بعينيه الرماديتين و بمحياه المشرق و اكتشفت أن لأذنيه نفس شكل أذني أبيه . كم رددت على مسامع هذا الأخير أني أتمنى أن يشبهه طفلنا في كل شيء عدا أذنيه .

في 31 مارس، يوم ولادة ابني، كان أمين بمدينة الرباط. بعد مرافقتي للعيادة، عاد إلى هناك لقضاء غرض ما. حضر للعيادة بعض من أقرب الأصدقاء لمعايدتي، فقد كلفهم أمين بالاعتناء بي إلى حين عودته. كانت أمي حاضرة أيضا. لم أدع أحدا يلمس المولود خوفا عليه، و بصعوبة سلمته لأمين لفترة وجيزة عندما عاد من الرباط.

إن هذا الطفل هبة حقيقية من السماء، لأن المناضلة النسوانية التي كنتها آن ذلك، كانت تظن أنه لا وقت لديها لتربية الأطفال، و أنه في هذا العالم ما يكفي من النساء للإنجاب، و لن تكف الأرض عن الدوران إن تخلفت واحدة .

هكذا، و حتى يرى النور، كان على إبني أن يتخطى العديد من الحواجز. لقد تجاوز اللولب المانع للحمل منذ أن كان نطفة، وتشبث بالرحم لما أصبح بويضة، حيث كنت أواظب على التمارين الرياضية لجهلي التام بحملي . لم أعي بالجنين في أحشائي حتى بلغ ثلاثة أشهر تقريبا.

عند إعلان نتيجة الفحص الذي كشف الحمل، ذهلت. ماذا حل بي ؟ وحدها معجزة قد تخرجني من هذه الورطة. لحسن الحظ، كانت الطبيعة أقوى من هواجسي . لقد تحققت المعجزة لما بدأت أشعر بحركات الجنين، فمنذ تلك اللحظة، تغير كل شيء، و بدأت

أعيش حملي بغريزة الأمومة الدافئة، و أرقب أصغر الإشارات التي تبعتني إياها هذه الحياة الناشئة في جوانحي و التي همت بها قبل ان أرى محياها.

منذ هذه الولادة، أصبحت كلي حيوية و نشاط. أصبح أيمن ابننا بالنسبة لنا منبعا للسعادة. تفرغت لرعايته تفرغا كاملا أثناء إجازة الأمومة. ما إن أنتهي من إرضاعه حتى يكون علي تغيير ملابسه و مداعبته حتى ينام. بعد هذا فقط، يمكنني أن أهتم بأشياء أخرى. و على العموم، كنت أستغل فترة نومه لأسترق لحظات أستريح فيها من الإرهاق .

عند انقضاء إجازة الأمومة، استأنفت عملي و أنا كلي حماس للقاء زملائي في المصنع. التحقت من جديد بصديقاتي في نادي المرأة، فوجدهتن قد غيرن استعمال الزمن أثناء غيابي و أصبحت الأنشطة أكثر تنوعا. إذ خصصن يوما في الأسبوع للأشغال اليدوية، حيث تتبادل المستفيدات خبراتهن. كن جميعا بحاجة إلى تأكيد ذواهن بإشرافهن على بعض الأنشطة. اكتشفت تقدمهن في جميع المجالات. إنهن الآن تجدن القراءة و الكتابة، و أصبحن كذلك واعيات بوضعهن، و اكتشفن صلب هويتهن.

نشأت بين المنخرطات علاقات وصداقات وطيدة، تتقاسمن الحلو و المر و تتبادلن الخبرات بينهن و تتعاونن و تقمن برعاية بعضهن البعض عند الحاجة. بدأت أوضاع بعض العاملات تتحسن بفضل تبادل المعلومات حول شروط العمل في هذا المصنع أو ذاك و تمكنت بعض العاطلات من بينهن الحصول على شغل ووجدت أخريات عمل

أفضل، كما أصبح لبعضهن منفذا لمنتوجاتهن التي تبتعنها من بعضهن البعض في نهاية الحصص .

لقد ساهمت دروس محو الأمية هذه في تكوين مجموعات نسائية منسجمة و متراصة، تطور قدراتها المعرفية و الإنتاجية بتكثيف علاقات التبادل بينها. في ختام السنة الدراسية، نظمنا حفلا ساهم فيه الجميع بجلب الحلويات و المشروبات .

في صيف 1985، قررت أخذ عطلة كنت في أمس الحاجة إليها. كنت أنوي السفر إلى الاتحاد السوفياتي. لم يكن زوجي يستطيع مصاحبتي لأنه كان ممنوعا من مغادرة التراب الوطني . فقد سبق أن منع من ركوب الطائرة للالتحاق بتدريب مهني رغم حيازته على جواز السفر. بعد كثير من التدخلات لدى السلطات المعنية، أخبر بأنه يؤخذ عليه اختفاءه عن الأنظار خلال فترة الاعتقالات التي طالت طلبة المدرسة المحمدية للمهندسين في سنة 1979. كانت التهمة واهية لا أساس لها ، ففي تلك الفترة كان أمين يحضر الدروس بانتظام كباقي الطلبة .

أذكر أنه كان علي أن أقدم للسلطات ورقة تثبث ترخيص زوجي لي بالسفر. بالنسبة لي، أن ألتمس مثل هذه الورقة كان يشكل لي أكبر إهانة. أخذ أمين كل وقته لتحرير رخصة السفر و ترك أعصابي تغلي على نار هادئة لمدة ثلاثة أيام قبل توقيعها. ركبت الطائرة نحو الاتحاد السوفياتي تاركة لمدة خمسة عشر يوما رضيعي الذي لم يتجاوز بعد عمره الستة أشهر.

كانت "البرسترو يكا"[6] وقتها في بدايتها . اكتشفت إلى أي حد كنت أنا أيضا مضللة بالدعاية الرأسمالية حول هذا البلد. كنت أتوقع رؤية الصفوف الا متناهية أمام المتاجر. هذه الصفوف كانت بالفعل طويلة، لكن رغم ذلك،كان دورك يأتي سريعا بعد دقائق معدودات .أما الحرية التي اكتسبتها المرأة السوفياتية في ظل النظام الشيوعي، فإنها لم تنل شيئا من أنوثتها و لا من أناقتها، بالعكس، فإن تفتحها و ثقتها بنفسها منحاها إشعاعا إضافيا .

في تلك الفترة ، كان الشباب السوفياتي يعيش فترة المراهقة بنضج وصفاء الذهن. حضرت أمسيات شاركت فيها الطفولة و الشبيبة الشيوعية. كانت مشاهد الرقصات و الأغاني رائعة و مثيرة للإعجاب. أندهشت منذ أول يوم لغياب الأطفال في شوارع موسكو. إذ ينخرط الأطفال في هذا البلد في أنشطة تربوية وبدنية و فنية و ثقافية طيلة النهار، لا يتركون و لو لحظة دون رعاية. هكذا يتم توجيه طاقاتهم الخلاقة للتعلم و للإبداع، سواء في المدرسة أو في مراكز رعاية الطفولة و الشباب. لا مجال للمقارنة مع حال شبابنا في الأحياء الشعبية، حيث يتسكع الأطفال بين الأزقة طوال اليوم .

لم يمر أسبوع حتى انتابني الحنين لإبني و اشتقت لأمين أشد الاشتياق، فبدأت أستعجل عودتي للمنزل، رغم روعة الرحلة و تنوع مواد برنامجها.

[6] Perestroïka

أخيرا، ها أنا في المطار. وجدت أمين في انتظاري، شاحب الوجه، مزرق الجفون. يبدو أن العمل أرهقه و كان أيمن يوقظه كثيرا في الليل. لكني أدركت فيما بعد أن تعبه و قلقه ناتج عن أسباب أخرى ، فبعض أصدقائه تم القبض عليهم إبان فترة الاعتقالات التي شهدها أكتوبر 1985 و التي مست الوسط التقدمي في الجمعيات الثقافية و النقابات، بل حتى مؤطرات نادي العاملات لمحو الأمية خشين الاعتقال فأوقفن نشاطهن، فيما داومت أنا و صديقتي خديجة في تقديم دروس المساء بالرغم من كوننا كنا نشعر بالمراقبة طوال الوقت من طرف البوليس السري بزي مدني. كنا نرى بأنه لا داعي للقلق و توقيف هذا النشاط، ما دام نشاطنا هذا ذو طابع اجتماعي و ثقافي محض و خال من أي معارضة سياسية. شيئا فشيئا، أصبح هذا الوضع لا يطاق ، و للتخفيف شيئا ما من حدة التوتر الذي انتابنا بسبب هذه الظروف المشحونة، اقترحت على أمين الذهاب مساء الجمعة للسينما لمشاهدة فيلم " الفراشة" ، رفض الفكرة أول الأمر، لكنه استسلم في الأخير أمام إلحاحي. عند خروجنا من قاعة العرض، وجدنا بعض الأصدقاء في انتظارنا وأخبرونا باعتقال عشرات الرفاق.

عدت بسرعة للمنزل دون أمين، لأهيئ له على عجل حقيبة سفر، بينما لبث هو ينتظرني في السيارة. كان ينوي قضاء عطلة نهاية الأسبوع عند بعض الأصدقاء حتى تتضح له الصورة . لم أنم تلك الليلة من شدة قلقي على أمين، و في الصباح كنت جد حائرة، لا أدري ما أفعله، لكنه اتصل بي في اليوم التالي .

الاختطاف

الأحد 27 أكتوبر، ذهبنا معا على مثن السيارة إلى الرباط، انتهزت الفرصة لزيارة سريعة لشقة والدتي في سلا و اتفقنا على موعد اللقاء على الساعة الثالثة بعد الزوال. ما إن ولجت باب المنزل، حتى شعرت بيد تدفعني داخله بعنف. صرخت من شدة الفزع، لكن يدا غليظة أغلقت فمي ككمامة من حديد. حاصرني أربع رجال، عصبوا عيني و أمروني بالصمت. إثر هذا الهجوم الوحشي، سقطت نظارتي و تهشم زجاجها على الأرض .

- نحن البوليس، الآن عليك أن تنفذي أوامرنا!

- آه.. أنتم بوليس؟ لقد فزعت.. اعتقدت أنكم مجرمون أو لصوص.

- حسنا، يبدو أنك ستتعاونين معنا بدون مشاكل. سننزع العصابة عن عينيك و سنفك أصفادك لنثبت لك حسن نيتنا. فقط عليك أن تجيبي على جميع أسئلتنا.

الساعة الآن تشير إلى الثامنة و النصف صباحا. اثنا عشر رجلا من رجال " القمع" في زي مدني أحاطوا بي، و تناوبوا على استنطاقي في مجموعات من أربع رجال. بدأت أسئلتهم تنهال علي دون انقطاع، نفس الأسئلة تتكرر للتأكد دون شك من صحة أجوبتي. سألوني حول نشاطي في إطار الاتحاد الوطني للمهندسين و في إطار نادي المرأة العاملة :

- ماذا تلقنين لهؤلاء النساء ؟

- أعلمهن القراءة و الكتابة.

-و ماذا أيضا ؟

-هذا كل شيء.

-لا حاجة للكذب، إننا نعرف كل شيء عنك. إنك تعبئين النساء في النادي للقيام بالثورة...!

عند سماع هرائهم، قد يظن البعض أننا نملك مخيمات لتدريب النساء فيها على حمل السلاح. ابتسمت و قلت في قرارة نفسي، يالها من نكتة!

بدأ الآن الاستنطاق يتمحور حول شخص زوجي، أنشطته، استعماله الزمني، أسفاره و معارفه :

- أنه لا يخبرني بما يفعل . إنه الرجل، و الرجل في المغرب ليس مطالبا بإخبار زوجته بمشاغله و تحركاته .

لم يسبق لي أبدا أن شعرت بتباطئ الزمن كما شعرت به خلال الاستنطاق. ظننت أن عقارب الساعة قد توقفت عن الدوران.

خلال إجابتي على استفساراتهم، كانت عدة تساؤلات و أفكار سوداء تجول في خاطري. ماذا سيفعلون بي ؟ لطالما سمعت كثيرا عن الطرق الوحشية لهذه الفرق الخاصة. متى سيشرعون في استخدام أساليبهم المعروفة بالعنف و الهمجية ؟ كم من الأبرياء اختطفوا في شروط مشابهة و اختفوا دون ترك أي أثر . بصعوبة طردت الرغبة في التفكير في ابني، أعرف إنه نقطة ضعفي، لكني كنت اصارع الانسياق مع غريزة الأمومة . تذكرت الأمهات الشابات اللواتي يحملن نتيجة اغتصاب أو نزوة شباب و يضطررن إلى خنق مولودهن بيديهن لتفادي الفضيحة. كنت أفكر في بؤسهن و أجد نفسي محظوظة رغم صعوبة وضعي .

حوالي الحادية عشر لاحظت حركة غير اعتيادية لرجال فرق البوليس الخاصة. دخل أحدهم إلى حجرة الاستنطاق و بدأ يشتمني و صفعني صفعة لم يسبق أن نلت مثلها في حياتي. أخبرني أنه تم القبض على زوجي في الوقت الذي زعمت فيه أنه كان في سفر.

انتهت الآن المعاملة الخاصة التي حظيت بها لحد الآن. عصبوا عيناي مرة ثانية و أعادوا الأصفاد لمعصمي و أمروني بالصمت المطلق، ثم اقتادوني إلى سيارتهم، حيث تعرفت على صديق كان في حالة يرثى لها ، إذ كانت آثار التعذيب بادية عليه و كانت قدميه جد منتفختين جراء الضرب المبرح .

على الساعة الواحدة زوالا، وصلنا إلى "لدرب" و هو المركز السيء الذكر للاعتقال و لتعذيب المعتقلين –لات السياسيين _يات .
اقتيد زوجي مباشرة للاستنطاق، بينما أخذني رجال القمع إلى شقتنا لتفتيشها. هناك، جمعوا كل الوثائق و المتعلقات الشخصية، المراسلات، الفواتير و جوازات السفر..... انتهزت فرصة مجيئي إلى البيت و لحظة غفلة رجال القمع، فهمست في أذن أمي أن تذهب بسرعة إلى الرباط لإخبار أخت أمين باعتقالنا.

ساقني رجال القمع من جديد إلى مركز الاعتقال. و هناك تم تدوين إسمي في سجل المركز و أعطي لي رقم ، لأن كل من يلج هذا الدرب تمحى هويته و يصبح مجرد رقم. عند جرد أشيائي المصادرة لحظة التسجيل، لم يشر المراقب إلى خسمائة درهم كانت في محفظة نقودي، كان أمين قد ألح على اقتسام مبلغ الألف درهم التي كانت

بحوزته قبل أن نفترق، حيث قال لي أن المال ينفع في كل الظروف و خصوصا أثناء الاعتقال.

هكذا، عندما طلب مني المراقب المصادقة على جرده لما كان بحوزتي، أصريت على وجود مبلغ الخمسمائة درهم. حاول المراقب إرهابي لكن دون جدوى، عندها تدخل رئيسه و أمره بالبحث من جديد في حافظة النقود، فوجد المبلغ أخيرا بقدرة ساحر. كان إصراري مجديا رغم هول الظروف و رهبة المكان.

قادني رئيس مركز الاعتقال بنفسه إلى المكان المخصص لي في كتمان، و همس في أذني أن لا أسمح لأي من الحراس أن يتحرش بي أو أن يستغلني جنسيا و حثني أن أخبره عن أي سلوك مشبوه قد يمس كرامتي. أعترف أنه رغم قلقي من هذا الجانب، لم أكن عرضة لأي تصرف مشبوه من طرف الحراس. بل بالعكس، كنت أعامل من طرفهم بكل احترام.

علي الآن أن أرفع يدي كلما سمعت رقمي. كل شخص يصل لهذا المركز يغير ثيابه بلباس "كاكي" الذي لا يحمي الجسم من البرودة. يخصص له ركن لا يتعدى مترين مربع في زنزانة لا تزورها الشمس. تقدم له أربع أغطية من النوع الرديء، ينفت نسيجها المهترئ مخلفا وراءه غبارا أسودا. يستعمل الغطاء الأول كفراش و الثاني كوسادة و الباقي للغطاء. قد يحصل بعض المحظوظين و المحظوظات على صندوق خشب لاستعماله كمائدة. ممنوع منعا مطلقا الكلام أو إزالة الشريط الذي يمنع الرؤية و إلا تعرض-ت المعتقل-ة للعقاب الشديد من طرف "الشاف" .

في الحمام تقدم لنا قفازة و فوطة قذرة. لا صابون و لا شامبو و لا مشط. تفوح المراحيض برائحة البول النتنة و تعج بالذباب و الناموس.

قسم المعتقلون إلى ثلاثة مجموعات. الأولى عزلت في زنازين مغلقة، كان ضمنها زوجي، الثانية جمعت في غرف، و الثالثة وضعت طول الممر، وهم في أغلبهم من الذين سيطلق سراحهم أو من كانت التهم الموجهة إليهم ليست بالثقيلة .

فطور الصباح كان يقتصر على كوب حساء من شعير وماء. في الساعة الحادية عشرة صباحا، يوزع الخبز و هو عبارة عن رغيف لكل معتقل. على الساعة الواحدة يقدم الغذاء الذي يتشكل من صحن وحيد دون لحم، يتغير حسب أيام الأسبوع: خضر، عدس، فول، فاصوليا جافة، حمص أو علبة سردين صدئة. مرة كل أسبوع، تقدم في العشاء حريرة بدون مذاق، يسبح فيها الدود بالعشرات. هذه الأكلات الثلاث تقدم في صحون من الألمنيوم دون ملاعق للمعتقلين المقيدي الأيادي و الذين عليهم رفعها إلى أفواههم .

قضيت أيام الاعتقال الأولى على سرير تخييم خشبي ضيق و غير مريح وضع في الممر. بعد أيام تم نقلي إلى غرفة كانت تستعمل كمستودع لملابس المعتقلين ولتخزين الأغطية و بعض الأغذية كأكياس الأرز.

في المساء لم أستطع النوم بسبب أصوات غريبة و شعرت أني لست الكائن الوحيد الحي في هذه الغرفة. بعد تحريات دقيقة، اكتشفت مصدر الأصوات. كانت أكياس الأرز تعج بآلاف الحشرات رغما أنها كانت تبدو محكمة الإغلاق .

كان الحراس يعاملونني باحترام. بل كان بعضهم يتعاطف معي و يجلب لي الصابون إن أحتجته أو كأس شاي ساخن أو كأس زبادي أو جبنة أو قطعة خبز لذيذ من منزله. بالتأكيد قد تبدو هذه معاملات بسيطة، لكن وقعها على معنوياتي كان هائلا.

في أحد الأيام حين سألني الرئيس في لحظة عطف إن كنت بحاجة لأمر ما، انتهزتها فرصة و طلبت منه أن يعيد لي صور إبني التي صودرت مني أول يوم إحتجاز. تردد قليلا و بعد إلحاحي أتاني بصورة أيمن التي ما إن رأيتها حتى انهمرت الدموع من مقلتي. إنها المرة الأولى التي أبكي فيها منذ أن اعتقلت، كيف لي أن أحبس دموعي و أنا أرى هذا الجزء مني، وليدي الذي لم يتجاوز بعد الستة أشهر. لاحظ الرئيس انهياري فسحب مني الصورة و نصحني بالصلاة للتخفيف من معاناتي .

الآن يمكنني أن أخلع العصابة مرة كل يومين، يأتي رئيس الحراس لفتح الشرفة الوحيدة لمدة نصف ساعة لتهوية الغرفة. مرة واحدة تم استدعائي للاستنطاق. أما الاستنطاقات الأخرى، فكانت تتم ليلا في المستودع-الغرفة. كان يتم إيقاظي فجأة لأجيب على بعض أسئلتهم .

في هذا المكان، كنت كمن سقطت في بئر عميقة و حتى وإن صرخت بكل قواي، فلن يسمعني أحد و لن أسترد حريتي إلا بمعجزة. كنت أتساءل هل الناس خارج هذا المكان لازالو يشربون القهوة بالحليب صباحا و يذهبون للعمل ، فقد خيل إلي أن الزمن قد توقف هنا .

كنت كل يوم أفكر في ابني و في حيرة أقاربي. إنهم يعرفون جيدا أن الوجود في هذا المكان يعني قمة الخطر بالنسبة للمناضلين و المناضلات، وأنه لا يمكن للإنسان أن يغادر هذا المركز السيء الذكر إلا في هذه الحالات :

- أن تعود إلى بيتك دون أضرار بليغة إذا لم تسجل أي تهمة ضدك.
- الانتقال إلى السجن، ثم إلى المحاكمة و الاحتفاظ بآثار هذه المرحلة مدى الحياة.
- الخروج مدمرا معنويا بعد توقيع التزام بالتخلي عن أي نشاط سياسي و نقابي.
- أن تحمل على نقالة إلى المستشفى ثم إلى المقبرة .

في الحقيقة، لم تكن لدي أي فكرة عن مدة اعتقالي: يوم؟ شهر؟ سنة؟ ما تبقى من الحياة؟ كل الاحتمالات كانت واردة في مثل هذه القضايا. فقدان اليقين هذا أصابني بقلق شديد و بدأت أفقد إدراكي بانسياب الزمن ابتداء من ثالث يوم. لكني لم أستسلم، و حتى أستعيد التحكم في ضبط الوقت و عدد الأيام التي أقضيها رهن الاعتقال، سحبت خيطا غليظا من أحد الأغطية و عقدته ثلاث عقد. ابتداء من الآن، كلما قدم لي الحارس رغيفي اليومي، أضيف عقدة في الخيط. هكذا استعدت قدرا من الهدوء و الثقة بعد ان تمكنت من التحكم في الزمن و لو نسبيا و بطريقة بدائية .

كان أمين يستدعى للاستنطاق كثيرا ويعود منه كل مرة منهارا ورأسه ساقط على كتفه كأنه مغمى عليه، رغم هذا، فقد احتفظت على

معنويات مرتفعة، أحاول عدم التفكير في ابني، فهو على كل حال بين أيادي أمينة. أما عندما يجتاحني الحزن، فإني استحضر ذلك الحي في المدينة العتيقة، حيث تسكن رشيدة التي لم تستطع المواظبة على الدروس. كنت أعزي نفسي بأني رغم تواجدي في هذا المكان، فإني لا أقاسى سوى قدرا بسيطا من معاناة ملايين الفقراء في بلادي .

منذ الرابع من نونبر لم أعد أشعر بتواجد أمين في المعتقل، و لم أعد أسمع سعاله. لم يعد ينادى على رقمه للاستنطاق. سألت أحد الحراس لأطمئن عليه، و لكن الحارس رفض أن يخبرني بأي شيء. فهمت بعد ذلك بأنه تم نقل أمين إلى المستشفى و علمت أيضا أن الطاقم الطبي رفض استقباله و هو في تلك الحالة الميؤوس منها، لكن تم قبوله في الأخير و تسجيله باسم مستعار .

انشرح صدري بعد علمي بتواجده في المستشفى. فهو الآن بعيد عن المعاملة الجهنمية التي كان يتعرض لها هنا. كنت أمتنع عن التفكير في الأسوأ لأني أعرف كذلك أن الانتقال إلى المستشفى في هذه الظروف قد يكون مقدمة للإعلان عن كارثة .

إني أستغرب لقدرة البشر الخارقة على تطوير وسائل دفاع هائلة في مثل هذه الأوضاع الصعبة، فقد كنت أتحكم في توجيه تفكيري للاحتمالات الأقل قسوة، هذا ما جعلني أتفادى المعاناة طيلة فترة الاعتقال. إضافة إلى ذلك، علي أن أعترف أني كنت في صحة جيدة و كانت معنوياتي عالية، و كأن الظروف القاسية تضاعف من طاقة تحملي بشكل مدهش.

تم إشعاري بقرب موعد إطلاق سراحي ، لكني لم أصدق الخبر البتة، إذ ظننته تمويها و مناورة لتهدئة فضولي حول مكان تواجد أمين. في التاسع من نونبر الذي صادف يوم السبت، تم إخباري أنه يمكن لي أن ألتحق بمنزلي و سلمت لي مفاتيح سيارتي. لم أصدق أذناي و انتابني الشك أن تكون هذه مؤامرة محبوكة. لم يكن بإمكاني السياقة دون نظارات، فطلبت منهم أن يرافقني أحدهم لقيادة السيارة حتى يبلغني المنزل.

ما إن خرجنا من المعتقل، حتى أعماني ضوء النهار ولم أستطع فتح عيناي لأني لم أر نور الشمس مدة أربعة عشر يوما .

أوصلني عنصران من رجال القمع بسيارتي حتى أسفل العمارة. صعدت الدرج كالبرق، أخذت نظارات قديمة و عاودت النزول ركضا و فكرة واحدة ووحيدة تجول في رأسي آنذاك ، أن ألحق بابني أيمن في الرباط .

ما كدت أخطو بضع خطوات على الرصيف، حتى خارت قواي. فأنا منذ أسبوعين لم أتمشى إلا للذهاب للحمام. ركبت سيارة أجرة للذهاب إلى محطة القطار، فلم أجد أي قطار متوجه نحو الرباط. توجهت بعدها إلى محطة الحافلات و هناك التقيت بصديقين تفاجئا بإطلاق سراحي و اقترحا علي أن أستريح قليلا في انتظار القطار فعملت بنصيحتهم .

في الرباط، وسط العائلة، أدهشني أن أرى الكل يبكي، رجالا و نساء. عندما استفسرتهم عن سبب كل هذا الحزن، أجابوني أنه نتيجة تراكم القلق الذي فاض هكذا عند رؤيتي ولقائي. كنت مشغولة بلقاء ابني لدرجة لم أعر معها أي اهتمام لنحيبهم. و لكن تلك الليلة لم أستطع

النوم. كنت أفكر في أمين، هل حقا هو في المستشفى؟ لماذا كل العائلة تبكي بتلك الحرقة؟

عدت يوم الأحد لمنزلي بالدار البيضاء مع جميع أفراد العائلة، استأنفت عملي صباح الإثنين بشكل طبيعي. كل العاملين في المصنع استقبلوني بحرارة لدرجة أني نسيت تقريبا مأساتي . في المساء عند عودتي إلى المنزل، أخبرتني أمي أنه تم استدعاء والدي أمين لقسم المستعجلات في مستشفى أبن سيناء في الرباط، وبعد ذلك بقليل حضر أخوالي من الرباط وأخبروني بوفاة أمين... و كأن السماء انهارت فوق رأسي و قتها. كيف استطعت أن أطرد من ذهني احتمال وفاته طيلة هذة المدة؟

لقد استشهد أمين منذ 06 نونبر 1985 بينما كنت لازلت رهن الاعتقال. و لم يتم الاعتراف بهذه الوفاة رسميا إلا خمسة أيام بعد ذلك. لكن الخبر كان قد انتشر كالنار في الهشيم و نقلته بعض وسائل الإعلام الدولية و سرى بسرعة في أوساط المناضلين قبل إعلانه من طرف السلطات .

تم الدفن في مدينة وجدة، مسقط رأسه، يوم الأربعاء 13 نونبر1985 . في هذا اليوم، خطى ابني أيمن خطوته الأولى و هو في الشهر الثامن من عمره، إنه من النادر أن يمشي الأطفال في مثل هذا العمر، و لكنه لم يكن له من خيار سوى أن يقف على رجليه في ذلك اليوم .

أصابني موت أمين بصدمة نفسية عميقة. لم يكن بالنسب لي زوجا فقط، بل كان أبا وأخا، فأنا لم أعرف معنا للأبوة الحقيقية. كان أيضا ذاك الصديق الحميم، الذي يصبح مع مرور الأيام جزءا من كيانك و الذي بغيابه تشعر و كأنه قد فقدت نصف روحك. لقد مرت سنوات عديدة منذ أن غادرنا، لكنه لازال من الصعب لحد الآن تصديق أنه لم يعد بيننا .

شامة و الذئاب

كان يا ما كان

في غابر الزمان و المكان

في بلاد الذل و الهوان

شباب و شابات، رفاق شامة

يحلمون و تحلمن بالعدل و بالأمان

و بالصحة و بالرخاء لكل الأنام

يحكى أن موطن شامة من أجمل البلدان

يومه يشهد كل الفصول

ليل قارس كفصل الشتاء

صباح مشرق كفصل الربيع

زوال حار كفصل الصيف

و غروب متثائب كفصل الخريف

أما شعب هذا البلد

فمن أغرب الشعوب

يملئ المساجد و المواخر

في إطار الأصالة و المعاصرة

وديمقراطية الموز

دليل الأنوثة

ساد في هذا البلد حاكم جائر

سطى على كل الحقول

و على الشجر المثمر

استولى على كل الخيرات

ولم يترك لشعبه سوى الفتات

لم يستحمل عنفوان شباب

عازم على إعادة توزيع الثروات

فبعت إليهم بأصحاب الحال

يراقبوهم ليل نهار

نصب المخبرون الكمائن

في كل درب و دار

اختطفوا و عذبوا و اغتالوا كل من ثار

شبت شامة على حب الوطن

و تجرعت انفصام روحه بمرارة

خطابات واعدة بغد مشرق كالمنارة

و واقع التجهيل والقهر و التفقير

مسرح سياسي يعج بالمهرجين

و الممخزنين و الوصوليين

لكل موقع ثمنه و شروطه الأولية

من بينها أن تكون في سلوكك أقرب إلى النبات

دليل الأنوثة

أكل و شرب و نوم و ممات

شتان بين المظاهر الحضارية

و ما وراء الأقنعة

علاقات شكلية

باطنها حلبة صراع دامي

دون قواعد

تنهش فيه مبادئ المروءة

بمخالب ذئاب تعوي ليلا في الحانات

حيث ترتب صيد الأيام المقبلة

تعد شباك الغدر

بشهود الزور

و بنات آوى " الهوى "

و أشباح الفيافي

تمزق كيان الوطن

وتلقي به على قارعة الزمن

مرية شرف، 2015

دليل الأنوثة

الخبز وتاي

في دوار بسهول دكالة

يقطن بوشعيب

طفل نحيف

ذو الإحدى عشر ربيعا

يبدو دون سن الثامنة

يفطر و يتغذى و يتعشى بوشعيب

بالشاي و بالخبز الحافي

ترى من شرب كأس حليبه؟

من سلبه قطعة لحم كانت ستغني غذاءه؟

من جنى ثمارا كانت ستسد رمقه؟

من حرمه من تغدية متوازنة؟

كيف له ان يتعلم و روحه تئن جوعا ؟

التجويع انتهاك لحق الطفولة

التجويع يضني كيانها الناشىء

التجويع عنف

التجويع يسبب التخلف

و يذكي القهر و الدونية

دليل الأنوثة

لكن الذئاب لا تنام

الذئاب لا تشبع أبدا

الذئاب لا ترحم الأطفال

لذا لا ترحموا ذئبا

مهما علا عواؤه

وإلا أكلكم

و جوع أطفالكم

مرة شرف ، 2015

كوني

كوني أنت

كوني كما تريدين أن تكوني

كوني النور، كوني الحياة، كوني السعادة

كوني الحب، كوني الأمل

كوني القدوة، كوني الرائدة، كوني البطلة

كوني الحاضر و المستقبل

كوني العاملة، كوني التقنية

كوني الرئيسة، كوني المديرة

كوني القائدة، كوني المناضلة

كوني منارة الأجيال

كوني رفيقة الرجال

كوني المنتخبة ، كوني المستشارة

كوني السفيرة، كوني الوزيرة

كوني رئيسة البلد

كوني الذكية، كوني العالمة

كوني المجتهدة، كوني المثابرة، كوني الناجحة

كوني المهندسة ، كوني الطبيبة

كوني الخلاقة، كوني الفنانة

كوني الحالمة و الحليمة

كوني العاشقة و المعشوقة

كوني أنت

كوني

مرة شرف، ماي 2019

نشرت النسخة الإلكترونية بالعربية في ماي 2019
www.mariacharaf.com

رقم الإيداع القانوني
Dépôt Légal 2019MO2817
ISBN 978-9920-37-827-7